@ketab_n
30.12.2015

باتريك موديانو

المؤلف الحائز على جائزة نوبل للآداب 2014

سلالة

رواية في السيرة الذاتيّة

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

www.kutub-pdf.net

باتريك موديانو

سلالة

رواية في السّيرة الذاتيّة

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

© هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2673.O3 A6412 2015
Modiano, Patrick, 1945-
[Un pedigree]
سلالة : رواية في السيرة الذاتية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.
151 ص. ؛ 11 × 18 سم.
ترجمة كتاب : Un pedigree
تدمك: 3-481-17-9948-978
1- القصص الفرنسية - القرن 21.
أ- صالح، دانيال. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Patrick Modiano
Un pedigree
© Éditions GALLIMARD, Paris, 2005

لوحة الغلاف: «رأس كلب» لبيار أوغست رينوار Pierre-Auguste Renoir، 1870.

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سلالة

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

تقديم

استلهم باتريك موديانو حياته وحياة القريبين منه في عدّة روايات موجزة ونافذة. روايات كتبها عاملاً بمبدأٍ صاغه في محاورة معه كالتّالي: «لا تنفع السيرة الذاتية في الأدب ما لم تقم المخيّلة بتهويتها». في هذا الكتاب، الصّادر في 2005، قام بنوع من التنازل فوضع هذه السّيرة الذاتية بشكلٍ رواية. ولكنّه هنا أيضاً خيّب انتظار بعض القرّاء، فتفادى الوقوع في فخّ الاستجابة للمعايير السائدة في ما يُدعى كتابة الذّات. وضع سيرة ذاتيّة قد تكون أوجز سيرة عرفها تاريخ الأدب وأكثفها. يعود إلى سيرة والديه الضائعَين في مهبّ سنوات الحرب، وإلى مجتمع ما بعد الحرب الذي يقول إنّه كان يقابل فيه، «في الشوارع والمحطّات وسائر الأماكن، أناساً بلا وزن، مريبين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحياناً»، «لن نعرف أبداً مصائرهم، هذا في حالِ ما إذا كان لديهم مصائر». وفي طباق مؤثّر مع هذا البحر المتلاطم من البشر المُراوحين في أماكنهم، عاجزين عن الحركة وعن ابتكار مساراتهم الخاصّة، يطبع موديانو كتابه بتسارع عجيب ويسبغ عليه وجازة مدهشة.

في عبارة أساسيّة تتوسّط هذا العمل كتب موديانو: «أكتب هذه الصفحات كمن يحرّر محضراً أو سيرة شخصيّة، بصفة توثيقيّة، ربّما للانتهاء من حياة لم تكن تخصّني». عبارة كاشفة عن فنّه، أو شعريّته. عامِداً يراهن على الاقتضاب، وعلى تكثيف المادّة السّرديّة. يؤْثر الإخبار اللمّاح، ويُراكم تدوينات سريعة متلاحقة ينشأ من اجتماعها مشهد كبير وترتسم إطلالة عريضة على حقبة بكاملها. كتابة شذريّة أو كاليدوسكوبيّة عمل من أجلها على إيصال العبارة المقتضبة التي عُرف بها كتّاب سابقون، من أمثال روجيه نيمييه وريمون كونو، إلى أقصى إمكاناتها. وفي الأوان ذاته مدّها بعاطفة معروفة بتكتّمها، وبموسيقى خاصّة لا يخطئ في تمييزها قارئ خبير. هي كتابة مَحاضر أو تقارير على ما يقول، مع شيء من العطف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والحنوّ على كائنات الحقبة تلك، المدموغة بهشاشتها، كائنات بلا أهميّة، إلّا فيما ندر، ضائعة في أغلبيّتها العظمى، وطوتها اليومَ يد النسيان، لكنّها بمرورها السريع وأفعالها المتوالية أو عجزها عن الفعل تشكّل تربة عالمه الخاصّ. يأخذها هو بعلّاتها وتخبّطها وأخطائها ويجعل منها رموزاً لفترة تاريخيّة مفصليّة. يرفعها إلى مقام الشهود، لا يحاكمها ولا يدينها، بل يعرضها كما هي، ومن خلالها يعرض مساحات واسعة من البؤس الشامل، ومن البؤس العريض الذي أمضى هو في كنفه طفولته وصباه، تلمع فيها بين الحين والحين مبادرات طِيبة وعلامات نبل.

في هذا البحر الهائج والمستكين في آن، بحر مجتمع الحرب العالمية الثانية وما بعدها المباشر، نال هو حصّته من الحرمان الأليم. عرف إهمال والديه الماديّ والمعنويّ، وصوّر ضياعهما بلا مهادنة وبلا كراهية. أب مهدّد بسبب أصوله الإثنية في ظلّ الاحتلال النازيّ، يزيّف هويّته ليبقى، ولا يكتفي بذلك، بل ينخرط في نشاط تجاريّ مشبوه شكّل لابنه الكاتب منذ صباه مصدر تساؤلات ممضّة ولغزاً كبيراً. وأمّ ممثّلة مغمورة تعيش في انتظار أبديّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لدور صغير تلعبه في فيلم أو مسرحيّة. في ظلّ هذا العوز الشامل تنشأ بين الإلف والإلف أسوار من اللّا تواصل لا تفلح في اختراقها للحظاتٍ إلّا صداقاتٌ نادرة وثمينة.

عبرَ هذا كلّه أعرب الفتى عن إرادة في صنع الذّات تبدأ برفض الانخراط في مسلكية إدارية أو وظيفية يريد والده والمجتمع زجّه إليها. يراهن على مساحة الضوء الآتية من الأحلام، من إبحاره في المخيّلة وصبواته الأدبيّة، حتّى يتحقّق التحّرر الذاتيّ الكبير بفضل الكتابة. والعنصر الأساس الذي يهمّه أكثر ما يهمّه (طفولته المتقاسمة مع شقيقه الوحيد، ورحيل الشقيق المبكّر عن مرضٍ) يحيطه الكاتب بمساحة واسعة من الصمت، كأنّما ليحميه من آثار المجتمع السلبيّ الذي يشكّل جلّ محيطه.

بعرفانٍ كبيرٍ يصف في الصفحات الأخيرة جولاته في شوارع باريس برفقة الكاتب والشاعر ريمون كونو، الذي يدين هو له بالكثير، كاتباً أوّلاً (إذ عوالم كونو هي في الغالب نزهات بباريس، وما يكون موديانو نفسه إن لم يكن روائيّ باريس و«مسّاحها» الكبير؟)؛ ومسوؤلاً في النشر ثانياً، فهو مَن قبلَ بنشر عمل موديانو الأوّل لدى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غاليهار، واستقبل الكاتب الشابّ في مكتبه وقال له: «إنّك كاتب يا سيّدي».

ينبغي في الكتاب الحاليّ الانتباه إلى عمل الأمثال أو الأليغوريّات. عالياً تنتصب هنا صورة الكلب. كلب هو من قبلُ حاضر في «حادث ليليّ» وروايات أخرى للكاتب، ومعروفٌ أنّ الكلب لا يثير في الثقافة الأوروبية الاشمئزاز ذاته الذي يثيره في ثقافات أخرى. إلى ذلك، هو في أعمال موديانو كلب هائم، شبحيّ، بلا حبل أو سلسلة، أي بلا صاحب يعنى به، كلب تائه بلا مأوى وبلا عون، وفي هذا الكتاب هو بلا سلالة: «أنا كلب يريد الإيحاء بأنّه يتمتّع بسلالة»؛ «كلب بلا سلالة بقي متروكاً لحاله أكثر ممّا ينبغي». هذه الأليغوريا تلخّص غرض الكتاب كلّه، بدءاً بالعنوان. عنوان يشكّل هو أيضاً لموديانو مناسبة للتعبير عن عرفان أدبيّ. فعن تصميم سمّى كتابه: *Un pedigree* («سلالة»)، مقتفياً أثر الكاتبِ البلجيكيّ، المعجب هو به، جورج سيمينون، الذي سمّى من قبلُ سيرته الذاتيّة: *Pedigree* . لا يفصل بين العنوانين سوى أداة التنكير، الحاضرة عند موديانو والغائبة عند سيمينون. صحيحٌ أنّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المؤدّى في الفرنسيّة هو ذاته (كما عندما تقول في العربيّة «كتابٌ» و«كتابٌ ما»)، إلاّ أنّ فارقاً لطيفاً يرتسم بين العنوانين. فسيمينون يسرد تاريخ سلالة هي سلالته، أو محيط هو محيطه، أمّا المتكلّم في كتاب موديانو فيسعى إلى «الاندساس» في سلالة، سلالة ما، أيّة سلالة، عبثاً يبحث عن إحداثيّاتها ووجوهها ومآثرها. وهنا ينتصب المعنى الكبير الآخر المتضمَّن في عبارته المفتاح المشار إليها أعلاه: «أكتب هذه الصفحات... ربّما للانتهاء من حياةٍ لم تكن تخصّني». وهذا أيضاً ما يفسّر سرعة إيقاع عمله ووجازة عباراته وعزوفه عن مراكمة التفاصيل، فهو يريد اختراق هذه السيرة المفكّكة وصولاً إلى ولادته الحقّ المتمثّلة في شروعه بالكتابة الأدبيّة. من هنا أيضاً اقتصار كتابه هذا على سيرة الطفولة والصّبا، وتوقّفه مع ظهور عمله الأدبيّ الأوّل. فمع الكتابة تبدأ الحياة، حياة ممكنة، وتتوقّف السّيرة، لأنّ سيرة الكاتب الحقيقيّة هي عمله.

أمثولة أخرى بعيدة الدلالة نلقاها في تلك المسرحية المهلهلة التي يجبر الفقرُ أمَّ الراوية-الكاتب على التمثيل فيها ذات يوم. مسرحيّة يقدّمها مؤلّفها الموسر لأصحابه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وحدهم، ويستأجر من أجلها قاعة مسرح ويشغّل مخرجاً وممثّلين، ويحظر على النقّاد مشاهدتها. وإذا بها تقف في تهافتها أمثولة عن المهزلة المبكية التي يعيشها أغلب أشخاص هذه السيرة العابرين. وهو ما أشار إليه موديانو نفسه في محاورة معه نُشرت بمناسبة ظهور هذا الكتاب في موقع غاليمار الإلكترونيّ، يقول فيها: «أجل، يخامرنا الانطباع في أنّنا نرى أمامنا فرقة ممثّلين بلا موهبة غالباً ما يؤدّون أدوارهم بنشاز. لكن لسوء الحظّ لا أحسب أنّهم يستمدّون من ذلك أيّة متعة. فهم من أولئك الناس الذين يموتون دون أن يكونوا عرفوا عن أنفسهم أدنى حقيقة... ومن هنا فتلك المسرحية لها دلالة كبيرة في هذا الصدد».

يبقى أن نشير إلى كتابة موديانو التي شاء لها هنا أن تكون تقريرية أو مقتضبة، واستبعد فيها عمل المجاز والشِّعر («لست موهوباً في ابتكار الاستعارات»). كتابة غالباً ما تقوم على عبارات برقيّة، بلا روابط، مقذوف بها كأنّما على عجل. ومع أنّ الإنشاء العربيّ يحبّذ الربط بين العبارات، لم تُكثر هذه الترجمة من الروابط، بل حافظت، ما أمكن ذلك، على وتائر الجُمَل، التي تمنح التفكّك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الظاهريّ وانعدام الترابط المنطقيّ والنحويّ مكاناً معتبراً في لعبتها الأثيرة.

كاظم جهاد

باريس، أواسط مارس 2015

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

ولدتُ في 30 يوليو 1945، في بولوني بيانكور، الرقم 11 ممرّ مارغوريت، لأب يهوديّ وأمّ فلامنديّة تعارفا في باريس في ظلّ الاحتلال. أكتب «يهوديّ» وأنا أجهل ما كانت هذه الكلمة تعنيه حقّاً لوالدي، ولأنّها كانت مدرجة في ذلك الوقت على بطاقات الهويّة. إنّ مراحل الاضطرابات الكبرى غالباً ما تولّد لقاءات غير مضمونة النتائج، بحيث أنّني لم أشعر يوماً بنفسي ابناً شرعيّاً، لا ولا وريثاً.

ولدت أمّي في العام 1918 في أنتفيربن[1]. قضت طفولتها في أحد أحياء ضواحي هذه المدينة، بين كيل

(1) Antwerpen أو Anvers بالفرنسيّة، مدينة في المنطقة الفلامنديّة من بلجيكا. (حواشي الكتاب وضعتها المترجمة).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهوبوكن. كان والدها عاملاً ثمّ مساعد مسّاح. جدّها لجهة والدتها، لويس بوغيرتس، كان عاملاً في أحواض الميناء. اتُّخِذ أنموذجاً لتمثال عامل الأحواض الذي أنجزه كونستانتان مونييه والذي يمكن رؤيته أمام قصر بلديّة أنتفيربن. ولقد احتفظْتُ بدفتر أجوره للعام 1913، الذي كان يدوّن عليه أسماء كلّ البواخر التي يفرغها: «ميشيغان»، «إليزابيثفيل»، «سانتا آنّا»... وقد قضى أثناء عمله في حوالى الخامسة والستّين من عمره، إثر سقوطه.

كانت والدتي فتاة حين انتسبت إلى حركة «الصقور الحمراء[1]». عملت في شركة الغاز. وفي المساء، كانت تتابع دروساً في الفنون المسرحيّة. وفي 1938، وظّفها المخرج السينمائيّ والمنتج جان فاندرهايدن لتمثّل في أفلامه «الكوميديّة» الفلامنديّة. أربعة أفلام من 1938 إلى 1941. رقصت في مسرحيّات غنائيّة في أنتفيربن وبروكسل، وبين الراقصات والفنّانات، كان هناك العديد من اللاجئين القادمين من ألمانيا. في أنتفيربن، تقاسمت منزلاً صغيراً في

(1) حركة للشّبيبة في بلجيكا كانت تتولّى استقبال الشبّان وتنظم لهم أنشطة متنوّعة من ألعاب وغناء ورقص فولكلوريّ وأشغال يدويّة وفنيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شارع هورنشترات مع اثنين من أصدقائها أحدهما راقص يدعى يوبي فان آلن والآخر ليون ليمينز الذي كان نوعاً من السكرتير لمثليّ ثريّ هو البارون جان ل. كان يزوّده بالفتيان، وقُتل في عمليّة قصف في أوستنده في مايو 1940. أقرب أصدقائها كان مصمّم ديكور شابّاً يدعى لون لانداو، عادت والتقت به في بروكسل عام 1942 وعلى ملابسه إشارة النجمة الصفراء.

أحاول في غياب أيّ معالم مرجعيّة أخرى، أن أتّبع التسلسل الزمنيّ. في العام 1940، بعد احتلال بلجيكا، كانت تقيم في بروكسل. كانت مخطوبة لشاب يدعى جورج نيلز كان يدير في العشرين من العمر فندقاً يدعى «كانتربري». وكان ضبّاط جهاز الدعاية والرقابة الألماني(1) صادروا قسماً من مطعم ذلك الفندق. كانت والدتي تقيم في «كانتربري» وتلاقي فيه أشخاصاً من مختلف الأنواع. لا أعرف شيئاً عن هؤلاء القوم. كانت تعمل في الإذاعة، في برامج فلامنديّة. وُظّفتْ في مسرح غنْت. وفي يونيو 1941، شاركت في جولة على مرافئ ضفاف المحيط الأطلسي

(1) Propagande Staffel.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ونهر المانش لتقديم عروض أمام العمّال الفلامنديّين من منظّمة توت[1]، وإلى الشمال، في هازبروك، أمام الطيّارين الألمان.

كانت فتاة جميلة، جافّة القلب. أهداها خطيبها كلباً من صنف تشو تشو، لكنّها لم تكن تعتني به بل تعهد به إلى أشخاص مختلفين، مثلما فعلت بي لاحقاً. ولقد انتحر الكلب بأن رمى بنفسه من النافذة. يظهر ذلك الكلب في صورتين أو ثلاث صور، ولا بدّ لي من الإقرار بأنّ له تأثيراً عميقاً في نفسي وأنا أشعر بأنّني أقرب ما أكون إليه.

لم يشأ والدا جورج نيلز، وهما ثريّان من أصحاب الفنادق في بروكسل، أن تتزوّج ابنهما. قرّرت مغادرة بلجيكا. كان الألمان يعتزمون إرسالها إلى مدرسة للسينما في برلين، غير أنّ ضابطاً شابّاً من جهاز الدعاية والرقابة عرفته في فندق «كانتربري» أنقذها من هذا المأزق بإرسالها إلى باريس، إلى شركة «كونتيننتال» للإنتاج بإدارة ألفريد غريفن.

---

(1) منظمة توت Todt كانت مجموعة هندسة مدنيّة وعسكريّة ألمانيّة إبّان الرايخ الثالث، تحمل اسم مؤسّسها فريتس توت.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصلت إلى باريس في يونيو 1945. أخضعها غريفن لاختبار في استديوهات بيانكور، لكنّ النتيجة لم تكن مقنعة. عملت في قسم الدبلجة في «كونتيننتال»، فكانت تكتب الترجمة الهولندية للأفلام الفرنسيّة التي تنتجها الشركة. وجمعتها علاقة صداقة بأوريل بيشوف، أحد مساعدي غريفن.

في باريس، أقامت في غرفة في الرقم 15 من رصيف[1] كونتي، في شقة كان يستأجرها بائع تحف قديمة من بروكسل وصديقه جان دو ب. الذي أتصوّره فتىً، في قصر ضائع في أقاصي بواتو مع والدة وشقيقتين، يكتب سرّاً رسائل متّقدة إلى كوكتو. التقت والدتي عن طريق جان دو ب. بشابّ ألمانيّ هو كلاوس فالنتينر، كان متلطّياً في وظيفة سهلة يزاولها في جهاز إداريّ. كان يسكن مشغلاً على رصيف فولتير ويطالع في ساعات فراغه آخر روايات إيفلين واه[2]. وأُرسل لاحقاً إلى الجبهة الروسيّة حيث قُتل.

ومن الزوّار الآخرين في شقّة رصيف كونتي: شابّ

(1) تُطلق تسمية «رصيف» quai على الشوارع المطلّة على نهر، وهي هنا شوارع باريس الواقعة على نهر السّين.

(2) Evelyn Waugh.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

روسيّ، جورج اسمعيلوف، كان مصاباً بالسلّ غير أنّه كان يخرج على الدوام بلا معطف في شتاءات الاحتلال القارسة. ويونانيّ يدعى خريستوس بيلوس، فاتته آخر باخرة أبحرت إلى أميركا حيث كان يفترض أن ينضمّ إلى صديق له. وكذلك فتاة بعمرها هي جنفييف فودواييه. لم يبق من جميع هؤلاء سوى أسمائهم. أوّل عائلة فرنسيّة وبورجوازيّة دُعِيت والدتي لزيارتها هي عائلة جنفييف فودواييه ووالدها جان لوي فودواييه. عرّفت جنفييف فودواييه والدتي على آرليتّي[1] التي كانت تسكن في رصيف كونتي، في المنزل المجاور للرقم 15. وضعت آرليتي والدتي تحت جناحها.

اعذروني على كلّ هذه الأسماء، وجميع الأسماء الأخرى التي ستلي. فأنا كلب يتظاهر بأنّ له سلالة. لم يكن والداي مرتبطين بأيّ بيئة محدّدة بشكل واضح. كانا متقلّبين غامضين، حياتهما مضطربة، حتّى أنّني أجدني مضطرّاً للبحث جاهداً عن بعض البصمات، بعض المعالم وسط هذه الرمال المتحرّكة، كمن يجاهد لملء بطاقة أحوال

(1) Arletty (1898–1992) ممثّلة ومغنّية فرنسيّة شهيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شخصيّة أو استمارة إداريّة بأحرف نصف ممحوّة.

ولد والدي عام 1912 في باريس، في ساحة بيتريل، عند أطراف الدائرتين التاسعة والعاشرة. كان والده يتحدّر من تيسالونيكي باليونان، من عائلة يهوديّة أصلها من توسكانا استقرّت في الإمبراطوريّة العثمانيّة. كان له أبناء عموم في لندن والإسكندريّة وميلانو وبودابست. أربعة من أبناء عموم والدي، كارلو وغراتسيا وجاكومو وزوجته ماري، قتلتهم عناصر القوّات الخاصّة النازيّة في أرونا، على ضفاف بحيرة ماجيوري، في سبتمبر 1943. غادر جدّي تيسالونيكي في طفولته للانتقال إلى الإسكندريّة. لكنّه بعد بضع سنوات، غادر إلى فنزويلا. أعتقد أنّه قطع الصلات مع جذوره وعائلته. اهتمّ بتجارة اللؤلؤ في جزيرة مارغاريتا، ثمّ تولّى إدارة حانوت في كراكاس. بعد فنزويلا، استقرّ في باريس عام 1903. فتح محلّ تحف قديمة في الرقم 5 من شارع شاتودان، كان يبيع فيه تحفاً فنيّة من الصين واليابان. كان يحمل جواز سفر إسبانيّاً وظلّ حتّى وفاته مسجّلاً في قنصليّة إسبانيا في باريس، في حين كان أجداده برعاية قنصليّات فرنسا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وإنكلترا ثمّ النمسا، بصفتهم «مواطنين من توسكانا». ولقد احتفظت بعدد من جوازات سفره، أحدها كان صادراً عن القنصليّة الإسبانيّة في الإسكندريّة. وثمّة إفادة حُرّرت له في كراكاس عام 1894، تؤكّد عضويّته في جمعية الرفق بالحيوان. أمّا جدّتي فقد ولدت في با دو كاليه. كان والدها يسكن عام 1916 في إحدى ضواحي نوتنغهام. لكنّها اتّخذت بعد زواجها الجنسيّة الإسبانية.

فقد والدي أباه في سنّ الرابعة. طفولته قضاها في الدائرة العاشرة من باريس، حيّ هوتفيل. درس في مدرسة شابتال الابتدائية حيث كان تلميذاً داخليّاً، حتّى أيام السبت والأحد، على ما كان يقول لي. وكانت ترده في مهجعه أنغام العيد الشعبيّ على الشريط الفاصل في وسط جادّة باتينيول. لم ينجح في امتحانات الباكالوريا. كان في مراهقته وشبابه متروكاً لأمره بلا رعاية. ومنذ سنّ السادسة عشرة كان يرتاد مع أصدقائه فندق بوهي لافاييت وحانات شارع فوبور مونمارتر، مثل «لو كاديه» و«لونا بارك». كان يدعى ألبرتو، لكنّه يعرف باسم ألدو. في الثامنة عشرة، تعاطى تهريب البنزين، متجاوزاً خلسةً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مراكز دفع الضرائب في باريس. في التاسعة عشرة، توسّل إلى مدير في بنك سان فال أن يدعمه في عمليّات «ماليّة»، معرباً عن قدرة على الإقناع جعلت الأخير يمنحه ثقته. غير أنّ القضيّة أخفقت إذ كان والدي لا يزال قاصراً، وتدخّل القضاء. في الرابعة والعشرين، استأجر غرفة في الرقم 33 من جادّة مونتاني، وحسبَ بعض الوثائق التي احتفظت بها، كان يزور لندن بشكل منتظم للمساهمة في إنشاء شركة أطلِق عليها اسم «برافيسكو ليميتد». توفّيت والدته عام 1937 في بيت ضيافة في شارع روكيبين، كان نزل فيه لبعض الوقت مع شقيقه رالف. ثمّ شغل غرفة في فندق تيرمينوس، قرب محطّة سان لازار للقطارات، غادرها بدون أن يدفع بدل الإقامة المترتّب عليه. وقبل اندلاع الحرب بقليل، تولّى إدارة محلّ للجوارب والعطور في الرقم 71 من جادّة ماليرب. تفيد المعلومات أنّه أقام في تلك الفترة في شارع فريديريك باستيا (الدائرة الثامنة).

واندلعت الحرب في حين لم يكن أرسى لنفسه أيّ أسس متينة، وكان منذ ذلك الحين يوارب ويتحايل لكسب عيشه. في 1940، كان بريده يرسَل له إلى فندق فيكتور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إيمانويل الثالث، 24 شارع بونتيو. وفي رسالة إلى شقيقه رالف بعث بها عام 1940 من أنغوليم حيث تمّ تجنيده في فرقة مشاة، جاء على ذكر ثريّا أودعاها في محلّ رهون. وفي رسالة أخرى، طلب أن يرسلوا له إلى أنغوليم مجلّة «كورييه ديه بترول[1]». اهتمّ بين 1937 و1939 بـ «مسائل» تتعلّق بالنفط مع شخص يدعى أنريكيث: شركة روايااليو للنفط الروماني.

باغتته هزيمة يونيو 1940 في ثكنة أنغوليم. لم يتمّ اقتياده مع جحافل الأسرى، إذ لم يصل الألمان إلى أنغوليم إلّا بعد توقيع الهدنة. فلجأ إلى سابل دولون حيث مكث حتّى سبتمبر. هناك التقى من جديد بصديقه هنري لاغروا وصديقتين لهما، فتاة تدعى سوزان وجيزيل هولريش التي كانت راقصة في حانة تاباران.

عند عودته إلى باريس، لم يتسجّل بصفته يهوديّاً. سكن مع شقيقه رالف عند صديقة الأخير، فتاة من موريشيوس تحمل جواز سفر إنكليزيّاً. كانت الشقة في

(1) *Courrier des pétroles*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرقم 5 شارع سوسيه بالقرب من مقرّ الغستابو[1]. كانت الفتاة من موريشيوس ملزمة بالحضور كلّ أسبوع إلى مركز الشرطة، بسبب جواز سفرها الإنكليزيّ. وأُودعت السجن عدّة أشهر في بيزانسون وفيتيل لكونها «إنكليزيّة». وكان لوالدي صديقة تدعى هيلا هـ.، يهوديّة ألمانيّة كانت في برلين خطيبة بيلي ويلدر[2]. اعتقُلا ذات مساء من فبراير 1942 في مطعم في شارع مارينيان، خلال حملة كشف على الهويّات، في شهرٍ شهد تكثيف المداهمات بسبب المرسوم الصادر حديثاً يومذاك، والذي حظَر على اليهود التواجد في الشارع والأماكن العامّة بعد الثامنة مساءً. لم يكن والدي وصديقته يحملان أيّ أوراق ثبوتيّة. صعدا في في حافلة لنقل الموقوفين واقتادهما مفتّشون «للتحقّق» منهما إلى شارع غريفّول، حيث مثلا أمام مفتّش يدعى شفيبلان. ترتّب على والدي الإفصاح عن هويّته. فصله

(1) الغستابو: مختصر اسم الشرطة السياسية للرايخ الثالث، وقد شمل نشاطه المناطق التي احتلّتها ألمانيا النازيّة.

(2) Billy Wilder (1906–2002) مخرج أميركيّ من أصل نمساوي، كان يقيم في برلين قبل أن ينتقل مع صعود الحزب النازي إلى باريس ثمّ إلى الولايات المتّحدة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشرطيّون عن صديقته، وتمكّن من الفرار فيما كانوا على وشك نقله إلى النظارة، مغتنماً انطفاء ساعة توقيت الضوء. أُطلق سراح هيلا هـ. في اليوم التالي من النظارة، إثر تدخّل أحد أصدقاء والدي على الأرجح. ترى من يكون؟ غالباً ما راودني هذا السؤال. بعد هروبه، اختبأ والدي تحت أدراج مبنى في شارع ماتوران، جاهداً لعدم لفت انتباه الناطور. قضى الليل هناك بسبب حظر التجوّل. وفي الصباح، عاد إلى الرقم 5 شارع سوسيه. ثمّ لجأ مع صديقته من موريشيوس وشقيقه رالف إلى فندق، فندق آلسيون في بروتوي، وكانت مديرته والدة أحد أصدقائهم. لاحقاً، سكن مع هيلا ه. في شقّة مفروشة في ساحة فيلاريه دو جوايوز وفي فندق «أو مارونييه» في شارع شازيل.

الأشخاص الذين تمكّنت من التعرّف إلى أسمائهم من بين كلّ الذين كان يعاشرهم في تلك الفترة هم هنري لاغروا، ساشا غوردين، فريدي ماك إيفوي -وهو أسترالي بطل في رياضة الزلّاجات الجماعيّة وسائق سيّارات سباق تقاسم معه بعد الحرب مباشرة «مكتباً» على الشانزليزيه لم أتمكّن من اكتشاف اسمه التجاريّ-، وشخص يدعى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان كوبوريندييه (189 شارع لا بومب)، وغيزا بيلمون، وتودي فيرنر (كانت تعرف أيضاً بـ «السيّدة ساهوك») وصديقتها هيسيان (ليزلوت)، وكيسا كوبرين، وهي روسية، ابنة الكاتب كوبرين. وقد مثّلت في بعض الأفلام وفي مسرحيّة لروجيه فيتراك بعنوان «آنسات عرض البحر». أمّا فلوري فرانكن الملقّبة ناردوس والتي كان والدي يناديها «فلو»، فكانت ابنة رسّام هولنديّ قضت طفولتها ومراهقتها في تونس. ثمّ قدمت إلى باريس وكانت تتردّد إلى حارة مونبرناس. في 1938، كانت ضالعة في حادثة أدّت إلى إحالتها على محكمة الجُنَح، وفي 1940 تزوّجت الممثّل الياباني سيسوي هاياكاوا. خلال الاحتلال، كانت على ارتباط بالممثّلة التي كانت بطلة فيلم «لاتالانت»، ديتا بارلو، وعشيقها الدكتور فوكس، أحد قادة مكتب «أوتو»[1]، أكبر مكاتب الشراء في السوق السوداء، في 6 شارع أدولف إيفون (الدائرة السادسة عشرة).

(1) نشطت إبّان الاحتلال الألماني وبتشجيع منه أعمال السوق السوداء، وكان مكتب أوتو أهمّ المكاتب التي كانت تشتري مختلف أنواع البضائع لحساب الألمان، وتعرض في المقابل على الفرنسيين القادرين على دفع الثمن المنتجات غير المتوافرة في السوق العاديّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذلك هو نوعاً ما العالم الذي كان والدي يعيش فيه. هل هو عالم من الانحلال؟ عالم من اللصوصيّة على مستوىً عالٍ؟ سأذكر كذلك، قبل أن تضيع في ليل النسيان البارد، روسيّة أخرى كانت صديقته في تلك الفترة، واسمها غالينا أورلوف، أو «غاي» كما كان أصدقاؤها ينادونها. هاجرت إلى الولايات المتّحدة في سنّ صغيرة جداً. رقصت في العشرين من عمرها في استعراض موسيقيّ في فلوريدا والتقت فيه برجل أسمر قصير القامة عاطفيّ للغاية ولبق للغاية أصبحت عشيقته: كان يدعى لاكي لوتشيانو[1]. ولدى عودتها إلى باريس، عملت عارضة أزياء وتزوّجت للحصول على الجنسيّة الفرنسيّة. كانت تعيش في بدايات الاحتلال مع تشيليّ يدعى بيدرو إيزاغيرّه، كان «سكرتير البعثة الدبلوماسيّة» لبلاده، ثمّ وحدها في فندق شاتوبريان، في شارع السيرك، حيث كان والدي يزورها مراراً. أهدتني بعد أشهر من ولادتي «دبدوباً» محشوّاً احتفظت به لوقت طويل كتعويذة، وكأنّه الذكرى

(1) Lucky Luciano أحد أهمّ رجال المافيا في الولايات المتحدة وأشرسهم، متحدّر من صقلّية ويعتبر «أبا» الجريمة المنظمة الحديثة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوحيدة المتبقّية لي من والدة اختفت. وقد انتحرت في 12 فبراير 1948 في الرابعة والثلاثين من عمرها، ودُفنت في سانت جنفياف دي بوا.

كلّما مضيت في جرد قائمة الأسماء هذه وناديت على الحاضرين في ثكنة مهجورة، شعرت برأسي يدور وأنفاسي تنقطع. عجيب كان ذلك القوم. وعجيب ذلك الزمن، زمن غامض ضبابيّ. التقى والداي في تلك الحقبة، بين هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يشبهونهما. فراشتان تائهتان طائشتان في وسط مدينة بلا بصر. *Die Stadt ohne Blick*[1].

لكنّي لا يسعني شيء، فهذه هي التربة – أو ربّما كومة الزبل – التي انبثقت منها. والفتات الذي جمعته عن حياتهم، استقيت معظمه من والدتي. فاتتها تفاصيل كثيرة عن والدي، عن العالم المشبوه، عالم السريّة والسوق السوداء، الذي كان منغمساً فيه بحكم الواقع. بقيت جاهلة لكلّ شيء تقريباً. وهو رحل حاملاً أسراره معه.

---

(1) «المدينة التي هي بلا بصر» (حرفيّاً: «المدينة التي هي بلا نظرة»)، تسمية أطلقها النازيّون على باريس لفرط ما كانوا يلاحظون لدى أهاليها من عداء تجاههم ومن اكتئاب بباعث من الاحتلال. وضع المؤلّف العبارة بالفرنسية ثمّ بالألمانية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعارَفا مساء يوم من أكتوبر 1942 عند تودي فيرنر المعروفة بـ «السيّدة ساهوك»، في الرقم 28 شارع شيفر، الدائرة السادسة عشرة. كان والدي يستخدم بطاقة هويّة باسم صديقه هنري لاغروا. في طفولتي، بقي اسم «هنري لاغروا» معلّقاً منذ الاحتلال على الباب المزجّج لمقصورة الناطور، بين قائمة سكّان الرقم 15 من رصيف كونتي، مقابل عبارة «الطابق الرابع». سألت الناطور من هو «هنري لاغروا» ذاك. أجابني: والدك. أذهلتني تلك الهويّة المزدوجة. علمت بعد وقت طويل أنّه استخدم في تلك المرحلة أسماء أخرى كانت لا تزال تعيد صورته إلى ذاكرة البعض، بعد وقت على انتهاء الحرب. لكنّ الأسماء في نهاية المطاف تنفصل عن البشر المساكين الذين كانوا يحملونها، لتومض في مخيّلتنا مثل نجوم بعيدة. عرّفت والدتي والدي على جان دو ب. وأصدقائه. وجدوا أنّ له «مظهراً غريباً، مثل أميركيّ جنوبيّ» ونصحوا والدتي برفقٍ بـ «لزوم الحذر». نقلت هذا الكلام لوالدي الذي أجابها ممازحاً أنّه في المرّة المقبلة سيكون مظهره «أكثر غرابة» وأنّه «سيفزعهم أكثر».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن أميركيّاً جنوبيّاً، لكنّه بغياب صفة شرعيّة لوجوده، كان يعتاش من السوق السوداء. كانت والدتي تأتي لاصطحابه من أحد تلك الحجرات المريبة التي يمكن الوصول إليها عبر مصاعد كثيرة موزّعة على طول أروقة مجمّع متاجر الليدو المكسوّة بالقناطر. كان هناك على الدوام برفقة عدّة أشخاص أجهل أسماءهم. وكان على اتّصال بصورة خاصّة مع «مكتب مشتريات» في الرقم 53 من جادّة هوش، يشغّله شقيقان أرمنيّان عرفهما قبل الحرب: ألكسندر وإيفان س. كان يسلّمهما من جملة البضائع شاحنات كاملة من محامل الكريات المنتهية صلاحيّتها القادمة من مخزونات قديمة لشركة «إس كا إف»، تبقى مكدّسة في أكوام غير قابلة للاستخدام، يتأكلّها الصدأ في أحواض سانت أوان. صادفت أثناء أبحاثي العشوائيّة أسماء بعض الأفراد الذين كانوا يعملون في الرقم 53 من جادّة هوش: البارون فولف، ودانتي فانوتشي، والدكتور بات، و«ألبرتو»، وتساءلت إن لم تكن تلك بكلّ بساطة أسماء مستعارة كان والدي يستخدمها. في مكتب شراء البضائع هذا على جادّة هوش التقى بشخص يدعى أندريه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غابيسون، غالباً ما كان يكلّم والدتي عنه، وهو صاحب المكتب. وقد اطّلعت على قائمةٍ بعناصر من الأجهزة الخاصّة الألمانيّة تعود إلى العام 1945، تتضمّن حاشية بشأن ذلك الرجل: غابيسون (أندريه). جنسيّة إيطاليّة، مواليد 1907. تاجر. جواز السفر رقم 13755 أُصدر في باريس في 18/ 11/ 42 وأُدرج فيه على أنّه رجل أعمال تونسيّ. شريك منذ 1940 لريشير (مكتب شراء البضائع رقم 53 جادّة هوش). في 1942 كان في سان سيباستيان مندوباً لـريشير. في أبريل 1944، كان يعمل بإمرة شخص يدعى رادوس من جهاز الأمن الألماني، فكان يتنقّل غالباً بين هنداي[1] وباريس. في أغسطس 1944 أفيد عنه على أنّه ينتمي إلى الشعبة السادسة من جهاز الأمن في مدريد بإمرة مارتن مايوالد. العنوان: شارع خورخي خوان 17، مدريد (رقم الهاتف: 222 ,50).

الأشخاص الآخرون الذين كان والدي على علاقة معهم أثناء الاحتلال، أو على الأقلّ الذين علمت بهم:

(1) Hendaye بلدة فرنسيّة في مقاطعة البيرينيه الأطلسيّة على الحدود مع إسبانيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مصرفيّ إيطاليّ، جورج جورجيني شيف، وصديقته سيمون التي تزوّجت لاحقاً صاحب المولان روج[1]، بيار فوكريه. أقام جورجيني شيف مكاتبه في الرقم 4 شارع بنتيفر. اشترى والدي منه ألماسة ورديّة ضخمة، «صليب الجنوب»، حاول إعادة بيعها لاحقاً بعد الحرب، حين لم يعد يملك قرشاً. أوقف الألمان جورجيني شيف في سبتمبر 1943، إثر توقيع إيطاليا الهدنة[2]. وخلال الاحتلال، قدّم لوالديّ شخصاً يدعى الدكتور كارل غيرستنر، كان مستشاراً اقتصاديّاً لدى سفارة ألمانيا، وكان له صديقة يهوديّة تدعى سيبيل، وأصبح لاحقاً على ما يبدو شخصيّة «مهمّة» في برلين الشرقيّة بعد الحرب. وآنّيه باديل: محام سابق، مدير مسرح «لو فيو كولومبييه» عام 1944. قام والدي بصفقات في السوق السوداء معه ومع زوج ابنته جورج فيكار. أرسل باديل لوالدتي نسخة من مسرحيّة «الأبواب المقفلة» لسارتر[3]

(1) Moulin-Rouge كاباريه باريسيّ يشتهر بعروضه الراقصة ويعتبر من معالم باريس.

(2) الهدنة بين إيطاليا والقوّات الحليفة، والتي نصّت على استسلام إيطاليا.

(3) *Huis clos* مسرحيّة للكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي كان يعتزم تقديمها في مايو 1944 في مسرح «لو فيو كولومبييه» والتي كان عنوانها الأصلي «الآخرون[1]». كانت تلك النسخة من «الآخرون» المطبوعة على الآلة الكاتبة لا تزال منسيّة في قعر خزانة في غرفتي بالطابق الخامس على رصيف كوندي، حين كنت في الخامسة عشرة. كان براديل يعتقد أنّ والدتي تحتفظ باتصالات مع الألمان، بسبب شركة كونتيننتال، وأنّه سيكون بوسعه بالتالي الاستحصال بأكثر سرعة بواسطتها على إذن الرقابة لتلك المسرحيّة.

ومن المحيطين بوالدي أيضاً: أندريه كاموان، بائع تحف أثريّة، رصيف فولتير. ماريا تشيرنيشيف، فتاة من نبلاء روسيا، غير أنّها أُقصيت من طبقتها، كان يتشارك معها في صفقات ضخمة في السوق السوداء، وفي صفقات أكثر تواضعاً مع شخص يدعى «السيّد فوكيه». أمّا فوكيه ذاك، فكان له متجر في شارع رين، وكان يسكن بيتاً صغيراً في إحدى ضواحي باريس.

أُغمض عينيّ، فيتراءى لي لوسيان ب. قادماً من

---

(1) *Les Autres*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أقاصي الماضي بمشيته المتثاقلة. أعتقد أنّ مهنته كانت تقوم على التوسّط وتعريف الناس بعضهم على البعض الآخر. كان بديناً للغاية، وفي طفولتي، كلّما جلس على كرسيّ، كنت أخشى أن ينشقّ تحت وزنه. حين كانا شابّين، هو ووالدي، كان لوسيان ب. عاشقاً لسيمون سيمون[1]، وكان متيّماً بها يتبعها مثل كلب وفيّ سمين. وكان صديق سيلفيان كيمف، وهي مغامِرة وبطلة في لعبة البلياردو أصبحت تحت الاحتلال المركيزة دابرانتيس وعشيقة أحد أعضاء جماعة شارع لوريستون[2]. إنّهم أشخاص من المستحيل إطالة التوقّف عندهم. مجرّد مسافرين مشبوهين يعبرون ردهات محطّات القطارات من غير أن أعرف يوماً وجهتهم، إن افترضنا أنّ لهم وجهة. ولا بدّ لاستكمال قائمة الأشباح هذه، من ذكر الشقيقين اللذين كنت أتساءل إن كانا توأمين: إيفان وألكسندر س. كان

(1) Simone Simon (1910–2005).

(2) مجموعة عرفت بـ «الغستابو الفرنسية» وهي تضمّ فرنسيين من أوساط الجريمة المنظّمة، عملت لحساب سلطات الاحتلال الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان مركزها في شارع لوريستون، في الدائرة السادسة عشرة من باريس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للثاني صديقة تدعى إينكا، راقصة فنلنديّة. لا بدّ أنّهما كانا من كبار أسياد السوق السوداء، إذ احتفلا إبّان الاحتلال بجمعهما «أوّل مليار»، في شقّة من المبنى الضخم في الرقم 1 من جادّة بول دومير، كان يسكنها إيفان س. عند تحرير فرنسا، فرّ الأخير إلى إسبانيا، على غرار أندريه غابيسون. ماذا عن ألكسندر س.، ما الذي حلّ به؟ أتساءل بشأنه. لكن هل من الضروريّ فعلاً التساؤل؟ قلبي أنا يخفق لكل الذين كنّا نرى وجوههم على «اللافتة الحمراء»[1].

غادر جان دو ب. وبائع التحف الأثرية القادم من بروكسل الشقّة على رصيف كونتي في مطلع 1943، وانتقل والداي للإقامة فيها معاً. قبل أن أسأم نهائيّاً من كلّ ذلك ولا أعود أجد الشجاعة والجَلَد، أنقل بعض نتف حياتهما في تلك الفترة البعيدة، لكن مثلما عاشاها في فوضى الحاضر.

كانا يلجآن أحياناً إلى آبلي، إلى قصر بريو، مع هنري

(1) لافتة باللون الأحمر أعدّتها أجهزة الدعاية النازيّة وعُلّقت في 21 فبراير 1944 على جدران باريس وعدد من المدن الفرنسيّة الكبرى لإعلان إعدام 23 مقاوماً من المجموعة التي عُرفت بـ «شبكة مانوكيان» باسم زعيمها الأرمنيّ الأصل ميساك مانوكيان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لاغروا وصديقته دونيز. كان قصر بريو مهجوراً. أصحابه كانوا أميركيّين أرغمتهم الحرب على مغادرة فرنسا وعهدوا إليهما بمفاتيحه. في الريف، كانت والدتي تركب مع لاغروا على درّاجته الناريّة من طراز بي اس إيه 500 سنتم مكعّب. قضت مع والدي شهري يوليو وأغسطس 1943 في نزل يدعى «لو بوتي ريتز» في فارين سانت إيلير. انضمّ إليهما هناك جورجيني شيف، وسيمون، وغيرستنر وصديقته سيبيل. كانوا يمارسون السباحة في نهر المارن. وكان في عداد روّاد ذلك النزل بعض اللصوص و«نساؤهم»، وبينهم المدعوّ «ديدي» ورفيقته «السيّدة ديدي». كان الرجال يغادرون في الصباح في سيّاراتهم لإتمام أعمال غامضة مريبة ويعودون في وقت متأخّر جدّاً من باريس. في إحدى الليالي، سمع والداي شجاراً في الغرفة فوق غرفتهما. كانت المرأة تنعت رفيقها بـ «الشرطي القذر» وألقت من النافذة رزماً من الأوراق الماليّة، آخذة عليه جلب كلّ تلك النقود. شرطيّون زائفون؟ أعوان للغستابو؟ لقد نجت تودي فيرنر المعروفة بـ «السيّدة ساهوك» والتي تعارف والداي عندها، من حملة توقيفات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في مطلع 1943. أصيبت بجرح حين قفزت من إحدى نوافذ شقّتها. وكان ساشا غوردين، أحد أقدم أصدقاء والدي، مطلوباً، كما تؤكّده رسالة من مديريّة الأحوال الشخصيّة في المفوضية العامّة للشؤون اليهودية[1]، موجّهة إلى مدير «شعبة تحقيق ومراقبة»: «6 أبريل 1944. سبق أن طلبت منكم بموجب الإخطار المدرج ذكره للمرجعيّة، القيام بشكل عاجل بتوقيف اليهودي غوردين ساشا لمخالفته قانون 2 يونيو 1941. على إثر هذا الإخطار، أبلغتموني بأنّه غادر منزله بدون إعطاء عنوانه الجديد. غير أنّه شوهد في الأيّام الماضية يجول على درّاجة في شوارع باريس. أرجوكم بالتالي القيام بزيارة جديدة إلى منزله تنفيذاً لإخطاري الصادر في 25 يناير الماضي».

أذكر أنّ والدي جاء على ذكر تلك الفترة مرّة واحدة، حين كنّا معاً ذات مساء في جادّة الشانزليزيه. أشار لي إلى طرف شارع مارينيان، حيث تمّ اعتقاله في فبراير 1942. وأخبرني عن عمليّة توقيف ثانية، في شتاء 1943، بعدما

(1) شرطة خاصّة مكلّفة بتطبيق سياسة نظام فيشي ضدّ يهود فرنسا إبّان الاحتلال النازيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وشى به «أحد». اقتيد حينها إلى نظارة السجن، حيث توسّط «أحد» لإطلاق سراحه. في تلك الليلة، شعرت بأنّه كان يودّ أن يبوح لي بأمر، غير أنّه لم يجد الكلمات لذلك. اكتفى بالقول لي إنّ سيّارة نقل الموقوفين كانت تجول على مراكز الشرطة قبل التوجّه إلى نظارة السجن. وفي إحدى تلك المحطّات، صعدت في الحافلة فتاة جلست قبالته، حاولْتُ عبثاً بعد وقت طويل البحث عن أثرها، من غير أن أعرف ما إذا كان ذلك المساء في عام 1942 أو 1943.

في ربيع 1944، تلقّى والدي في الشقّة على رصيف كونتي اتّصالات هاتفيّة من شخص مجهول. كان صوت يخاطبه باسمه الحقيقيّ. في ما بعد ظهيرة أحد الأيّام، دقّ مفتّشان فرنسيّان باب الشقّة في غيابه وسألا عن «السيّد موديانو». أعلنت والدتي لهما أنّها مجرّد فتاة بلجيكيّة تعمل في شركة كونتيننتال، وهي شركة ألمانيّة. وأنّها تستأجر غرفة في تلك الشقّة من رجل يدعى هنري لاغروا، ولا يمكنها إعطاؤهما أيّ معلومات. قالا إنّهما سوف يعودان. غادر والدي رصيف كوندي هرباً منهما. أفترض أنّ الأمر لم يعد في حينه يتعلّق بعناصر شرطة الشؤون اليهوديّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقيادة شفيبلان[1]، بل برجال شعبة التحقيق والمراقبة –كما حصل لساشا غوردين. أو رجال المفوّض بيرميّو[2] من مديريّة الشرطة. أردت فيما بعد أن أضع وجوهاً على أسماء جميع هؤلاء الأشخاص، لكنّهم ظلّوا على الدوام قابعين في الظلّ، تفوح منهم رائحة جلد متعفّن.

قرّر والداي مغادرة باريس بأسرع من يمكن. كان لخريستوس بيلوس، اليوناني الذي التقت به والدتي عند ب.، صديقة تعيش في بيت قرب شينون[3]. لجأ الثلاثة عندها. حملت والدتي معها ملابسها الخاصّة بالتزلّج، في حالِ ما إذا اضطرّا إلى الفرار أبعد من ذلك. بقيا مختبأين في ذلك المنزل في تورين حتّى التحرير، وبعدها عادا إلى باريس على درّاجتين، مع سيل القوّات الأميركيّة.

في مطلع سبتمبر 1944، لم يشأ والدي العودة مباشرة إلى رصيف كونتي، خشية أن تلاحقه الشرطة من جديد،

(1) المفوّض جاك شفيبلان، مدير شرطة الشؤون اليهوديّة، من مسؤولي الشرطة الفرنسية الذين تعاونوا مع الاحتلال الألماني.

(2) المفوّض شارل بيرميّو، مسؤول جهاز الشؤون اليهوديّة التابع لمديريّة الشرطة القضائيّة، مكلّف اعتباراً من نوفمبر 1942 بتنفيذ المداهمات وعمليات توقيف اليهود بموجب الإخطارات الألمانيّة.

(3) Chinon بلدة فرنسيّة تقع إلى جنوب غرب باريس، في مقاطعة تورين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكن هذه المرّة لمحاسبته على نشاطاته الخارجة عن القانون في السوق السوداء. نزل والداي في فندق، عند زاوية جادّة بروتوي وجادة دوكين، فندق «آلسيون دو بروتوي» ذاك الذي سبق أن لجأ إليه والدي عام 1942. أرسل والدتي أوّلاً إلى رصيف كونتي للاستكشاف، ليرى أيّ منحى تتّخذه الأمور. استدعتها الشرطة وخضعت لاستجواب مطوّل. كانت أجنبيّة، وأرادوا منها أن تفصح لهم عن السبب الحقيقيّ لقدومها إلى باريس عام 1942 بحماية الألمان. شرحت لهم أنّها مخطوبة ليهوديّ تعيش معه منذ سنتين. لا شكّ أنّ مَن استجوبوها كانوا زملاء الشرطيَّين اللّذين أرادا توقيف والدي باسمه الحقيقيّ قبل بضعة أشهر. أو ربّما كان هذان من بينهم. لا بدّ أنّهم كانوا الآن يبحثون عنه بأسمائه المستعارة، من غير أن يتمكّنوا من التعرّف إليه.

أطلقوا سراح والدتي. في المساء، تحت نوافذ غرفتهما في الفندق، كانت نساء يتنزّهن على طول الشريط الفاصل بين جانبي جادّة بروتوي برفقة الجنود الأميركيّين، وكانت إحداهنّ تحاول أن تشرح لأميركيّ كم من الأشهر ظلّوا بانتظارهم. تعدّ على أصابعها بالإنكليزيّة: «واحد،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اثنان..». لكنّ الأميركيّ لا يفهم قصدها ويقلّدها، فيعدّ على أصابعه هو أيضاً: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة..». ويكملان إلى ما لا نهاية. بعد بضعة أسابيع، غادر والدي فندق «آلسيون دو بروتوي». لدى عودته إلى رصيف كونتي، علم أنّ «الميليشيا»[1] صادرت في يونيو سيّارته الفورد التي كان خبّأها في مرآب في نويّي، وأنّ جورج مانديل[2] قُتِل في تلك الفورد التي كان هيكلها يحمل آثار الرصاص والتي حجزها الشرطيّون لدواعي التحقيق.

(1) منظمة شبه عسكريّة فرنسية شكّلتها حكومة فيشي عام 1943 لمطاردة المقاومين وكانت متعاونة مع الغستابو.

(2) Georges Mandel سياسي فرنسي معادٍ للنازيّة وللسياسات المؤيدة للألمان، اعتُقل وقُتل بأمر من قائد شرطة حكومة فيشي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في 2 أغسطس 1945، حضر والدي على درّاجة إلى بلديّة بولوني بيّانكور لإعلان ولادتي. أتصوّره عائداً عبر شوارع أوتوي المقفرة وأرصفة النهر الصامتة في ذلك الصيف.

ثمّ قرّر العيش في المكسيك. كان جوازا السفر جاهزَين. في اللحظة الأخيرة، غيّر رأيه. كاد يغادر أوروبا بعد الحرب. وبعد ثلاثين عاماً، ذهب إلى سويسرا، البلد المحايد، ليموت هناك. في تلك الأثناء، تنقّل كثيراً: إلى كندا، وغويانا، وأفريقيا الإستوائيّة، وكولومبيا... ما بحث عنه من غير أن يجده، كان الإلدورادو. وأتساءل إن لم تكن سنوات الاحتلال هي ما كان يهرب منه في الحقيقة. لم يفاتحني يوماً بالمشاعر التي كانت تخالجه في باريس خلال تلك الفترة. الخوف والإحساس الغريب بأنّه مطارد لأنّهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صنّفوه في فئة محدّدة من الطرائد، في حين لم يكن هو نفسه يعلم من هو بالضبط؟ لكن يجدر بنا ألّا نتكلّم نيابة عن الآخرين، ولطالما شعرت بالإحراج لكسر مساحات الصمت، حتّى حين تكون أليمة.

1945. كان والداي لا يزالان يسكنان الرقم 15 من رصيف كونتي، في الطابقين الرابع والخامس. اعتباراً من العام 1947، استأجر والدي أيضاً الطابق الثالث. ازدهار نسبيّ وخاطف لم يدم، عرفه والدي حتّى 1947، قبل أن يدخل نهائيّاً مرحلة ما يعرف بالبؤس الذهبيّ. كان يزاول أعمالاً مع جورجيني شيف، ورجل يعرف بالسيّد تيسّييه كان مواطناً من كوستا ريكا، وبارون يدعى لوي دو لا روشيت. كان مقرّباً من ز.، شخص كان ضالعاً في «فضيحة النبيذ»[1]. قدِم جدّي وجدّتي لجهة والدتي من أنتفيربن إلى باريس للاهتمام بي. بقيت معهما على الدوام، ولم أكن أفهم سوى اللغة الفلمنديّة. في 1947، ولد شقيقي رودي، في الخامس من أكتوبر. تابعَت والدتي منذ التحرير

(1) كانت «فضيحة النبيذ» أكبر فضيحة سياسية في فترة ما بعد الحرب لما كشفته عن ضلوع شخصيات من داخل السلطة في ممارسات السوق السوداء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دروساً في الفنّ المسرحيّ في معهد «لو فيو كولومبييه»... في 1946، مثّلت في مسرح «لا ميشوديير» حيث أدّت دوراً صغيراً في مسرحيّة «بجانب شقرائي»[1]. وفي 1949، ظهرت بشكل عابر في فيلم «موعد يوليو»[2].

في ذلك الصيف من العام 1949، في رأس أنتيب وعلى الساحل الباسكيّ، كانت صديقة «بلاي بوي» روسيّ الأصل، فلاديمير راشيفسكي، والمركيز أ.، وهو باسكيّ كان ينظم قصائد. هذا ما علمت به بعد وقت. بقينا أنا وشقيقي وحيدين لحوالى سنتين في بياريتز. كنّا نسكن شقّة صغيرة في كاسا مونتالفو، والمرأة التي كانت تهتمّ بنا كانت حارسة ذلك المنزل. لم أعد أذكر وجهها بشكل واضح.

في سبتمبر 1950، جرت عمادتنا في بياريتز، في كنيسة سان مارتان، دون أن يحضر أيّ من والدينا. وبحسب شهادة العماد، كان عرّابي رجلاً غامضاً يدعى «جان مينت»، لا أعرفه. عند بدء العام الدراسيّ الجديد في أكتوبر 1950، ذهبت الى المدرسة لأوّل مرّة، والتحقت بمؤسّسة

(1) *Auprès de ma blonde* مسرحيّة لمارسيل أشار.
(2) *Rendez-vous de juillet* فيلم للمخرج جاك بيكر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«سانت ماري» في بياريتز، في حيّ كاسا مونتالفو.

عند الخروج من الصفوف في ما بعد ظهيرة أحد الأيّام، لم يحضر أحد لاصطحابي. أردت العودة وحيداً، لكنّ شاحنة صغيرة صدمتني وأنا أقطع الطريق. نقلني السائق عند الراهبات اللواتي وضعن على وجهي قطعة شاش مبلّلة بالأثير حتّى أنام. منذ ذلك الحين، وأنا حسّاس للغاية إزاء رائحة الأثير. أكثر ممّا ينبغي. ظلّ للأثير ذلك المفعول الغريب عليّ، يذكّرني بمعاناة، لكنّه يمحوها على الفور. الذاكرة والنسيان معاً.

عدنا إلى باريس عام 1951. ذات يوم أحد، قبل الظهر، كنت في كواليس مسرح مونبرناس حيث كانت والدتي تلعب دوراً صغيراً في مسرحيّة «عقدة فيلمون»[1]. كانت والدتي على المسرح. شعرت بالخوف. أخذت أبكي. أعطتني سوزان فلون التي كانت تمثّل أيضاً في المسرحيّة، بطاقة بريديّة حتّى أهدأ.

الشقّة على رصيف كونتي. في الطابق الثالث، كنّا نسمع في المساء أصداء أصوات وقهقهات في الغرفة

---

(1) *Le Complexe de Philémon* مسرحيّة لجان برنار لوك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المجاورة لغرفتنا، حيث كانت والدتي تستقبل أصدقاءها من سان جرمان دي بريه. نادراً ما كنت أراها. لا أذكر أيّ بادرة منها توحي بحنان حقيقيّ أو رعاية. كنت أشعر على الدوام بقدر من الحذر والتيقّظ في حضورها. نوبات غضبها المباغتة كانت تجفّلني، وبما أنّني كنت أذهب إلى صفوف التعليم الدينيّ، كنت أقدّم صلاة من أجل أن يغفر الله لها. كان مكتب والدي في الطابق الرابع. غالباً ما كان يمكث فيه برفقة شخصين أو ثلاثة. كانوا يجلسون على الأرائك أو على مساند الكنبة. يتحادثون فيما بينهم. يجرون اتّصالات هاتفيّة الواحد تلو الآخر. ويتقاذفون الهاتف الواحد للآخر وكأنّه كرة رغبي. بين الحين والآخر، كان والدي يوظّف فتيات، طالبات من معهد الفنون الجميلة، للاهتمام بنا. كان يطلب منهنّ الردّ على الهاتف والقول إنّه «ليس موجوداً». كان يملي عليهنّ رسائل.

في مطلع 1952، عهدت والدتي بنا إلى صديقتها سوزان بوكورو التي كانت تسكن منزلاً مستقلّاً في الرقم 38 من شارع الدكتور كورزين، في جوي أون جوزاس. التحقت بمدرسة جان دارك، في نهاية الشارع، ثمّ بالمدرسة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرسميّة المحليّة. في العام 1952، شاركنا أنا وشقيقي في جوقة الترتيل خلال قدّاس منتصف الليل في كنيسة البلدة. قراءاتي الأولى: «آخر الموهيكيّين»[1] الذي لم أفقه منه شيئاً، غير أنّني أكملت قراءته حتّى النهاية. و«كتاب الأدغال»[2]. وقصص أندرسن التي صوّرتها أدريان سيغور. و«حكايات القطّ الجاثم»[3].

كان هناك حركة متواصلة ذهاباً إياباً لنساء غريبات في 38 شارع الدكتور كورزين، من بينهنّ زينا راشفسكي، سوزان بوليه المعروفة بلقب «فريدي»، مديرة «كارولز»، ملهى ليليّ في شارع بونتيو، وامرأة تدعى روز ماري كراويل، كانت تملك فندقاً في شارع فيو كولومبييه، وتقود سيّارة أميركيّة. كنّ يرتدين سترات وأحذية رجّاليّة، وكانت فريدي تضع ربطة عنق. كنّا نلعب مع ابن شقيقة فريدي.

(1) *Le Dernier des Mohicans* رواية تاريخيّة للكاتب الأميركي جيمس فينيمور كوبر.

(2) The Jungle book أو بالفرنسيّة *Le Livre de la jungle* رواية للكاتب البريطاني راديارد كيبلينغ.

(3) *Contes du chat perché* مجموعة قصص للكاتب الفرنسيّ مارسيل إيميه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان والدي يزورنا من وقت لوقت برفقة أحد أصدقائه وامرأة شابّة شقراء لطيفة تدعى ناتالي، كانت مضيفة طيران تعرّف إليها خلال إحدى رحلاته إلى برازافيل. كنّا نستمع إلى الراديو بعد ظهر الخميس لمتابعة برامج الأطفال. في الأيّام الأخرى، كنت أستمع أحياناً إلى نشرة الأخبار. ينقل المذيع وقائع محاكمة مرتكبي مجزرة أورادور[1]. وقع هاتين الكلمتين ما زال إلى اليوم يبثّ فيّ الرعب، كما في تلك الأيّام حين لم أكن أفهم تماماً ما يجري.

ذات مساء، خلال إحدى زياراته، كان والدي جالساً قبالتي، في صالون البيت في شارع الدكتور كورزين، قرب المشربيّة المستديرة. سألني عمّا أريد أن أصبح لاحقاً في الحياة. لم أدرِ ما أجيبه.

في فبراير 1953، جاء والدي ذات صباح وأخذنا أنا وأخي في السيّارة من المنزل المقفر، وأعادنا إلى باريس. علمت لاحقاً أنّ سوزان بوكرو أوقِفت في قضايا سطو. بين جوي أون جوزاس وباريس، ينتصب سرّ تلك الضاحية

(1) مجزرة ارتكبتها فرقة تابعة للقوّات الخاصّة الألمانيّة في قرية أورادور سور غلان في 10 يونيو 1944، وأدّت إلى تدمير القرية وقتل جميع سكّانها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي لم تكن أصبحت ضاحيةً بعد. القصر المهدوم، وأمامه المرج المكسوّ بالحشائش العالية، من حيث كنّا نطلق طيّارة ورق. غابة ميتز. والدولاب الكبير في مضخّات مارلي، الذي كان يدور وسط قرقرة شلّال وطراوة المياه المنسابة.

بقينا في باريس من 1953 إلى 1956 وكنت أذهب مع شقيقي إلى المدرسة الرسميّة المحليّة في شارع بون دو لودي. كنا نحضر أيضاً صفوف التعليم الديني في سان جرمان دي بريه. كنّا نلتقي كثيراً بالأب باشو الذي كان كاهناً في سان جرمان دي بريه، ويسكن شقّة صغيرة في شارع بونابرت. عثرت على رسالة كتبها لي الأب باشو في تلك الفترة. «الاثنين 18 يوليو. أتصوّر أنّك تبني حتماً قصوراً من رمل على شاطئ البحر... وحين يتصاعد المدّ، لا يسعك سوى أن تهرب على وجه السرعة! كما حين يدقّ الجرس معلناً نهاية الفرصة في ملعب مدرسة بون دو لودي! أتعلم أنّ الطقس حارّ جدّاً في باريس؟ لحسن الحظّ، تحصل بين الحين والآخر عواصف رعديّة تضفي بعض البرودة إلى الجوّ. لو كانت دروس التعليم الدينيّ لا تزال سارية، لما كنت انتهيت من توزيع أكواب شراب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النعناع من الإبريق الأبيض على جميع رفاقك. لا تنسَ عيد الخامس عشر من آب: بعد شهر يحين عيد انتقال السيّدة مريم العذراء. في ذلك اليوم، عليك أن تتناول[1] حتّى تفرح قلب والدتك في السماء. ستكون راضية عن ابنها باتريك إن أنت أحسنت القيام بما يسرّها. تعلم جيّداً أنّك يجب ألّا تنسى في العطلة أن تحمد الله على كلّ الوقت الممتع الذي يهبك ايّاه. إلى اللقاء عزيزي باتريك. أبعث لك قبلات من القلب. الأب باشو». كانت صفوف التعليم الدينّي تجري في الطابق الأخير من مبنى متداعٍ في الرقم 4 من شارع لابايي -الذي يؤوي اليوم شققاً فخمة- وفي قاعة في ساحة فورستنبرغ تحوّلت إلى متجر فاخر. الوجوه تغيّرت. لم أعد أعرف حيّ طفولتي، وما كان جاك بريفير والأب باشو ليعرفاه هما أيضاً.

في الجانب الآخر من السّين، تنتشر ألغاز باحة اللوفر وساحتي الكاروسيل وحدائق التويلري حيث كنت أقضي ما بعد ظهائر طويلة مع شقيقي. الحجارة السوداء وأوراق أشجار الكستناء تحت الشمس. المسرح في الهواء

(1) إشارة إلى المناولة وهي تناول خبز القربان أو الخبزة المقدّسة في الكنيسة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطلق. تلّة الأوراق اليابسة المتكدّسة لصق الجدار الداعم للساحة، عند أسفل متحف «جو دو بوم»[1]. وضعنا أنا وشقيقي أرقاماً للممرّات. الحوض الفارغ. تمثال قايين وهابيل في إحدى ساحتَي الكاروسيل اللتين أُزيلتا. وتمثال لافاييت في الساحة الأخرى. الأسد البرونزيّ في حدائق الكاروسيل. الميزان الأخضر لصق الجدار المحاذي لدرب حافّة النهر. خزف المراحيض تحت درب «فويّان» والطراوة المنتشرة فيها. البساتنة. طنين محرّك الجزّازة في صباح مشمس، على إحدى بقع العشب قرب الحوض. الساعة الضخمة بعقاربها المسمّرة إلى الأبد، عند بوّابة القصر الجنوبيّة. وعلامة الحديد الحامي الذي كوى كتف ميلايدي[2]. كنّا نضع أنا وأخي شجرات أنساب، فتواجهنا مشكلة إيجاد الرابط بين لويس التاسع وهنري الرابع. في الثامنة من عمري، شاهدت فيلماً كان له وقع شديد في

(1) Jeu de Paume متحف يقع في حدائق التويلري، مخصّص للفنّ المعاصر والتصوير الفوتوغرافيّ.

(2) Milady de Winter إحدى شخصيّات رواية «الفرسان الثلاثة» للكاتب ألكساندر دوما. امرأة مغامرة وجريئة تحمل على كتفها علامة زهرة زنبق مكوية بالحديد الحامي، لاتّهامها بالسرقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نفسي: «أعظم استعراض في العالم»[1]. وبالتحديد مقطع منه: قطار أهل السيرك يتوّقف في الليل، وقد قطعت طريقه السيّارة الأميركيّة. انعكاسات نور القمر. سيرك ميدرانو[2]. الفرقة الموسيقيّة تعزف بين فقرات العرض. البهلوانات روم وأليكس ودرينا. الأعياد الشعبيّة. عيد فرساي، مع السيّارات الصداميّة بألوانها من البنفسجيّ إلى الأصفر والأخضر والأزرق الليليّ والورديّ... مهرجان ساحة الإنفاليد، مع الحوت يونس. المرائب. عابقة برائحة العتمة والبنزين. نور خافت. الضجيج والأصوات تتبدّد فيها تاركة صدى.

من بين كلّ قراءاتي في تلك الفترة (جول فيرن، ألكسندر دوما، جوزيف بيريه، كونان دويل، سيلما لاغرلوف، كارل ماي، مارك تواين، جيمس أوليفر كوروود، ستيفنسون، «ألف ليلة وليلة»، الكونتيسّة دو سيغور، جاك لندن)، أحتفظ بذكرى خاصّة عن «كنوز

---

(1) *The Greatest Show on Earth* أو بالفرنسيّة *Sous le plus grand chapiteau du monde* فيلم أميركيّ من إخراج سيسيل دوميل.

(2) Cirque Médrano سيرك فرنسي شهير أسّسه البهلوان جيرونيمو ميدرانو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الملك سليمان»[1] والمقطع حيث يكشف المرشد الشابّ عن هويته الحقيقيّة، معلناً أنّه ابن ملك. كتابان جعلني عنواناهما أحلم: «سجين زِندا»[2]، و«لغز السفينة»[3].

بين أصدقائنا من المدرسة في شارع بون دو لودي: بيار دو كيانغ، فيتناميّ يدير والداه فندقاً صغيراً في شارع غريغوار دو تور. وزدانيفيتش، خلاسيّ أسود وجيورجيّ، ابن شاعر جيورجيّ يدعى إيليازد. أصدقاء آخرون: جيرار الذي كان يسكن فوق كاراج في دوفيل، في جادّة لا ريبوبليك. وفتىً يدعى روني لم أعد أذكر بشكل واضح ملامح وجهه، ولا أين عرفناه. كنّا نذهب لنلعب معه في منزله، قرب غابة بولونيا. أذكر بشكل مبهم أنّنا ما إن كنّا نجتاز باب المدخل، حتّى نلفي أنفسنا في لندن، في أحد منازل بلغريفيا أو كنسنغتون تلك. فيما بعد، حين قرأت

(1) *King Somolon's Mines* أو بالفرنسيّة *Les Mines du roi Salomon*، رواية مغامرات للكاتب البريطاني هنري رايدر هاغارد صدرت عام 1885.

(2) *The prisoner of Zenda* أو بالفرنسيّة *Le Prisonnier de Zenda*، رواية مغامرات للكاتب البريطاني أنتوني هوب، صدرت عام 1894.

(3) *Secret Cargo* أو بالفرنسيّة *Le Cargo du mystère*، رواية للكاتب البريطاني هاورد بيز، صدرت عام 1931.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قصّة غراهام غرين «القبو»[1]، خطر لي أنّ روني ذاك الذي لا أعرف عنه شيئاً، كان يمكن أن يكون بطلها.

عطلة في دوفيل في بيت صغير، قرب جادة لا ريبوبليك، مع صديقة والدي، ناتالي، مضيفة الطيران. أمّا والدتي، ففي المرّات النادرة التي تأتي فيها، كانت تستقبل أصدقاءها الآنيّين، من ممثّلين يلعبون أدواراً في مسرحيّة في الكازينو، ورفيق شبابها الهولندي يوبي فان آلن. كان من فرقة المركيز دو كويفاس[2]. حضرت بفضله عرض باليه مؤثّراً للغاية: «المسرنمة». رافقت والدي ذات يوم إلى ردهة فندق رويال حيث كان على موعد مع امرأة تدعى السيّدة ستيرن، قال لي إنّها تملك إسطبلاً لخيول السباق. ما الذي كان يجنيه من السيّدة ستيرن تلك؟ كلّ يوم خميس بُعيد الظهر، كنّا نذهب أنا وشقيقي لشراء مجلّة «طرزان» عند بائع الصحف، هناك، قبالة الكنيسة. قيظ. لا أحد سوانا في الشارع. بقع ظلّ وشمس على الرصيف. رائحة أزهار الحناء...

---

(1) *The Basement Room* أو بالفرنسيّة *Première Désillusion*، قصّة قصيرة للكاتب الأميركي غراهام غرين.

(2) فرقة باليه بإدارة المركيز دو كويفاس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في صيف 1956، كنّا أنا وشقيقي نسكن البيت الصغير مع والدي وناتالي، مضيفة الطيران. اصطحبتنا هذه في عطلة في عيد الفصح من السنة نفسها، في فندق في فيلار سور أولون. في باريس، في يوم أحد من العام 1954، بقينا أنا وشقيقي في قعر كواليس «لو فيو كولومبييه» حين انتقلت أمّي إلى خشبة المسرح. قالت لنا امرأة اسمها سوزي بريم كانت تؤدّي دور البطولة في المسرحيّة، بنبرة بغيضة، إنّه لا يجدر بنا أن نكون هناك. لم تكن تحبّ الأولاد، على غرار الكثير من الممثّلات الفاشلات العجائز. بعثت لها رسالة: «سيّدتي العزيزة، أتمنّى لك عيدَ ميلادٍ تعساً جدّاً». ما صدمني فيها كان نظرتها القاسية والمتهيّبة في آنٍ معاً.

الأحد، كنّا نستقلّ مع والدي الباص رقم 63 حتّى غابة بولونيا. البحيرة والجسر العائم الذي كنّا نبحر منه في زورق إلى الخليج الصغير ومطعم «لو شاليه ديزيل»[1]... ذات مساء، كنّا ننتظر حافلة العودة في غابة بولونيا، حين دفعنا والدي إلى شارع أدولف إيفون الضيّق. توقّف أمام منزل فخم وقال لنا: أتساءل من يسكن هنا الآن -وكأنّه

(1) شاليه الجزر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمام مكان أليف. رأيته في ذلك المساء في مكتبه يبحث في الدليل حسبَ الشوارع. أثار الأمر فضولي. علمت بعد عشر سنوات أنّه في الرقم 6 من شارع أدولف إيفون، في منزل فخم لم يعد موجوداً (عدت إلى ذلك الشارع عام 1967 للتثبّت من الموقع الذي توقّفنا عنده مع والدي: كان ذلك يطابق الرقم 6)، كان مقرّ مكتب «أوتو»، أكبر مركز للاتّجار في السوق السوداء بباريس. وفجأةً تختلط في رأسي رائحة عفنة مع روائح دوّامة الخيول الخشبيّة وأوراق الأشجار اليابسة في غابة بولونيا. أذكر أيضاً أنّنا في تلك الفترة، كنّا أنا وشقيقي ووالدي نصعد أحياناً بعد الظهر في حافلة نختارها عشوائيّاً، ونكمل حتّى محطّة آخر الخطّ. سان مانديه. بوّابة جانتيّي...

في ديسمبر 1954، التحقت كتلميذ داخليّ بمدرسة مونسيل، في جوي أون جوزاس. الواقع أنّني جلت على جميع مدارس جوي أون جوزاس. الليالي الأولى في المهجع كانت شاقّة وغالباً ما كانت تتملّكني الرغبة في البكاء. لكنّني بعد وقت قصير بدأت بالقيام بتمرين لتقوية عزيمتي: كنت أركّز انتباهي على نقطة ثابتة، تكون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بمثابة طلسم. كانت النقطة الثابتة في ذلك الحين حصاناً بلاستيكيّاً صغيراً أسود.

في فبراير 1957، فقدت شقيقي. في يوم أحد، حضر والدي وعمّي رالف لاصطحابي من المدرسة الداخليّة. على الطريق إلى باريس، توقّف عمّي رالف الذي كان يقود السيّارة، وخرج منها وتركني وحيداً مع والدي. في السيّارة، أخبرني والدي بوفاة شقيقي. في يوم الأحد السابق، كنت قد قضيت بعد الظهيرة معه في غرفتنا على رصيف كونتي. وضّبنا معاً مجموعة من الطوابع البريديّة. كان لا بدّ لي من العودة إلى المدرسة في الساعة الخامسة، وشرحت له أنّ فرقة من الممثّلين ستؤدّي للتلامذة مسرحيّة في مسرح المدرسة الداخليّة الصغير. لن أنسى أبداً نظرته في يوم الأحد ذاك.

إذا ما استثنيت شقيقي رودي، ووفاته، أعتقد أنّه ليس ثمّة بين كلّ ما سأنقله هنا ما يعنيني في الصميم. أكتب هذه الصفحات كمن يحرّر محضراً أو سيرة شخصيّة، بصفة توثيقيّة، ربّما للانتهاء من حياة لم تكن تخصّني. مجرّد شريط من الأحداث والأفعال. ليس لديّ ما أعترف به ولا ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكشف سرّه، وأنا لا أشعر بأدنى ميل إلى التأمّل في النفس ومراجعة الضمير. بل على العكس، كلّما بقيت الأمور غامضة ومبهمة، ازداد اهتمامي بها. لا بل كنت أجهد في إيجاد سرّ لأشياء خالية من الأسرار. والأحداث التي سأنقلها حتّى عامي الحادي والعشرين، عشتها في «عرض خلفيّ»، تلك الوسيلة التي تقضي بعرض مشاهد على شاشة خلفيّة فيما يلازم الممثّلون أماكنهم في موقع التصوير في الاستديو. وددت لو أترجم ذلك الانطباع الذي أحسّ به كثيرون من قبلي: كانت الأحداث كلّها تتعاقب كأنّما على شاشة خلفيّة ولم يكن بوسعي بعدُ أن أعيش حياتي.

بقيت تلميذاً داخليّاً في مدرسة مونسيل حتّى العام 1960. أربع سنوات من نظام عسكريّ. كلّ صباح، رفع العلم. مشية عسكريّة. مكانك قف! تأهّب! مضايقات يقوم بها بعض «النقباء» من تلاميذ السنة الإعداديّة الثانية، مكلّفين بفرض الالتزام بـ «الانضباط». الجرس الكهربائي يعلن النهوض من النوم. الاستحمام على دفعات من ثلاثين. تمارين رياضيّة. استرح. تأهّب. وطوال ساعات العمل في البستان، كنّا نمشّط العشب في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صفوف لجرْف أوراق الأشجار اليابسة.

جاري على مقاعد الصفّ في السنة التكميليّة الثالثة كان يدعى سفيرشتاين. كنّا نبيت في المهجع ذاته في الجناح الأخضر. أخبرني أنّ والده كان يدرس الطبّ في فيينّا حين كان في العشرين من عمره. في 1938، عند ضمّ النمسا إلى ألمانيا، قام النازيّون بإذلال يهود فيينّا، فأرغموهم على غسل الأرصفة، ورسم نجمة داود بأنفسهم على واجهات محلّاتهم. تحمّل والده كلّ هذا الاضطهاد، إلى أن هرب من النمسا. ذات ليلة، قرّرنا أن نذهب لاستكشاف داخل الموقع المحصّن في قعر البستان. كان يتحتّم علينا عبور البستان الكبير المكسوّ بالعشب، وإن لفتنا انتباه أحد النّظراء، فقد نواجه عقاباً صارماً. رفض سفيرشتاين المشاركة في هذه المغامرة الرعناء. في اليوم التالي، عزله رفاقي ونعتوه بـ «الجبان»، بتلك السماجة الخاصّة بالثكنات العسكريّة، سماجة مضنية، حين يكون «الرجال» فيما بينهم. وصل والد سفيرشتاين بشكل مباغت بعد ظهر أحد الأيّام إلى المدرسة. أراد أن يتكلّم مع كامل مجموعة المهجع. قال لهم بلطف أن يتوقّفوا عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اضطهاد ابنه وعن نعته بـ «الجبان». فاجأت تلك المبادرة رفاقي، وحتّى سفيرشتاين نفسه. كنّا متحلّقين حول الطاولة، في قاعة الأساتذة. وكان سفيرشتاين بجانب والده. تصالح الجميع في أجواء من المرح. أعتقد أنّ الوالد قدّم لنا سجائر. لم يكن أيّ من رفاقي يعلّق في حينه أهميّة على الحادث. ولا حتّى سفيرشتاين نفسه. لكنّني أحسست جيّداً بتوجّس ذلك الرجل الذي تساءل إن كان الكابوس الذي عانى منه قبل عشرين عاماً سيتكرّر مع ابنه.

كانت مدرسة مونسيل تؤوي أولاداً منبوذين، أبناء غير شرعيّين، أطفالاً ضائعين. أذكر برازيليّاً كان جاري في المهجع لفترة طويلة، لم تكن وردتْه أيّ أخبار من والديه منذ سنتين، وكأنّهما أودعاه بالأمانة في محطّة قطارات منسيّة. كان آخرون يقومون بصفقات سراويل جينز وباشروا رغم سنّهم باقتحام حواجز للشرطة. حتّى أنّ شقيقين من بين التلاميذ أُحيلا بعد عشرين عاماً إلى محكمة الجنايات. شباب مرفّه بمعظمه، شباب ذهبيّ، إنّما من ذهب مريب، فاسد المعدن. معظم هؤلاء الفتيان البسطاء الطيّبين لن يكون لهم مستقبل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قراءاتي في ذلك الزمن. بعضها طبعني بميسمه: «فيرمينا مركيز»، «جناع العقاب»، «الغراميّات الخادعة»، «وتشرق الشمس أيضاً»[1]. في كتب أخرى، كنت أستعيد فنطازيّة الشوارع: «مارغريت الليل»، «مجرّد امرأة»، «شارع بلا اسم»[2]. كان لا يزال هناك بضع روايات قديمة منسيّة في مكتبات المصحّات المدرسيّة، روايات نجت من الحربين الأخيرتين، تقبع هناك بخفر متجنّبةً لفت الانتباه، خشية إنزالها إلى القبو. أذكر أنّني قرأت «آل أوبرليه»[3]. لكنّ أكثر ما كنت أقرأه كان أولى كتب الجيب التي بدأت تصدر حينها، وكتب «السلسلة الأرجوانية» بغلافها الكرتونيّ. روايات جيّدة، روايات رديئة، لا فرق. الكثير من تلك الكتب لم يعد مدرجاً على قائمة الإصدارات. من بين كتب الجيب الأولى تلك، احتفظت بعض العناوين بسحرها بالنسبة لي: «شارع الهرّ الصيّاد»، «وردة براتيسلافا»،

(1) *Fermina Marquez, la Colonie pénitentiaire, Les Amours jaunes, Le soleil se lève aussi*.

(2) *Marguerite de la nuit, Rien qu'une femme, La Rue sans nom*.

(3) *Les Oberlé*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«ماريون فتاة الثلج»[1].

يوم الأحد، نزهة مع والدي وأحد شركائه يومذاك. ستيوبّا. غالباً ما كان والدي يلاقيه. يضع نظّارة لعين واحدة، ويدهن شعره بكميّة من مرهم التصفيف، حتّى أنّه كان يترك أثراً على الكنبة حين يسند رأسه إليها. لا يزاول أيّ مهنة. يسكن في بيت ضيافة على جادّة فيكتور هوغو. أحياناً كنّا نذهب، أنا ووالدي وستيوبّا، في نزهة إلى غابة بولونيا.

في يوم أحد آخر، اصطحبني والدي إلى معرض القوارب، في ناحية رصيف برانلي. التقينا بأحد أصدقائه من قبل الحرب: «باولو» غيران. شابّ كهل يرتدي سترة بليزر. لم أعد أذكر إن كان يزور المعرض هو إيضاً، أم كان يشرف على منصّة فيه. شرح لي والدي أنّ باولو غيران لم يفعل في حياته سوى ركوب الخيل وقيادة سيّارات جميلة وإغواء فتيات. فليكن ذلك عبرة لي: أجل، الشهادات ضروريّة في الحياة. في عصر ذلك اليوم، بدا والدي

(1) *La Rue du Chat-qui-pêche, La Rose de Bratislava, Marion des neiges*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساهماً، وكأنّه التقى بشبح. كلّما صدف لي لاحقاً أن مررت برصيف برانلي، تذكّرت قامة باولو غيران ذاك السمينة بعض الشيء، وجهه الذي بدا لي غليظاً متراخياً تحت شعره الداكن المسرّح إلى الخلف. وسيبقى السؤال عالقاً إلى الأبد: ترى ماذا كان يفعل يوم الأحد ذاك بلا شهادات في معرض القوارب؟

كان هناك أيضاً رجل يدعوه والدي السيّد شارلي دالتون. هو من كان والدي يلهو بالهاتف معه خصوصاً ومع رفيقه القديم لوسيان ب.، فيتقاذفونه مثل كرة رغبي. كان اسمه يوحي لي بالأشقّاء دالتون، من كتب القصص المصوّرة[1]، واكتشفت لاحقاً أنّه كان كذلك اسم أحد أصدقاء ألفريد دو موسّيه واثنتين من عشيقاته. وكان هناك رجل يناديه والدي دائماً باسم عائلته: روزن. روزن ذاك كان شبيهاً بالممثّل ديفيد نيفن. فهمت من كلام والدي أنّه أثناء حرب إسبانيا، انخرط في صفوف الفرانكيّين. كان يبقى صامتاً، جالساً على الأريكة، على

(1) الأشقّاء دالتون هم الأشقياء الأربع في القصص المصوّرة «لوكي لوك» *Lucky Luke* للرسّام البلجيكي موريس وكاتب السيناريو الفرنسيّ رينيه غوسيني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مدى ساعات. وحتّى في غياب أبي. وفي الليل أيضاً، على ما أتصوّر. كان جزءاً من الأثاث.

أحياناً كان والدي يرافقني صباح الاثنين إلى مقهى «لا روتوند»، عند بوّابة أورليان. هناك كانت تنتظرني الحافلة لتعيدني إلى المدرسة. كنّا ننهض قرابة الساعة السادسة، وقبل أن أستقلّ تلك الحافلة، كان والدي يغتنم الفرصة ليعطي مواعيد في مقاهي بوّابة أورليان، تضيؤها مصابيح النيون في الصبيحات الشتائيّة التي لا يزال يلفّها ليل دامس. صفير آلات تحضير القهوة. الأشخاص الذين كان يلتقي بهم هناك كانوا مختلفين عمّن يقابلهم في فندق كلاريدج أو غراند أوتيل. كانوا يتحادثون خافضين أصواتهم. مقدّمو عروض شعبيّة جوّالة، رجال ذوو سحنات محتقنة توحي بوكلاء تجاريّين متجوّلين، أو وجوه ماكرة مثل موظّفي كتّاب عدل ريفيّين. ما الذي كان يجنيه منهم تحديداً؟ كانوا يحملون أسماءً ذات أصداء بلديّة: كينتار، شفرو، بيكار...

ذهبنا في صباح يوم أحد في سيّارة أجرة إلى حيّ الباستيل. استوقف والدي سيّارة الأجرة حوالى عشرين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرّة أمام مبانٍ على جادّة فولتير، وشارع لا ريبوبليك، وجادّة ريشار لونوار... وفي كلّ محطّة، كان يودع ظرفاً لدى ناطور المبنى. هل هو نداء إلى مساهمين سابقين في شركة لم تعد قائمة، نبش سنداتها من جديد؟ ربّما اتّحاد الهند الصينيّة للمناجم ذاك؟ وفي يوم أحد آخر، وزّع مغلّفاته على طول جادّة بيرير.

أحياناً، مساء يوم السبت، كنّا نزور زوجين مسنّين، آل فاكون، يسكنان شقّة ضيّقة في شارع رويسّو، خلف حيّ مونمارتر. على جدار الصالون الصغير، كان معروضاً في إطارٍ الوسام العسكريّ الذي حصل عليه السيّد فاكون في حرب 1914. كان صاحب مطبعة في ما مضى. كان يهوى الأدب. أهداني طبعة فاخرة مجلّدة لمجموعة سان بول رو الشعرية، «الوردة وأشواك الدرب»[1]. في أيّ ظروف تعرّف والدي عليه؟

أذكر أيضاً شخصاً يدعى ليون غرونوالد. كان يأتي لتناول الغداء مع والدي عدّة مرّات في الأسبوع. طويل القامة، شعره رماديّ مموّج، رأس كلب سبانيوليّ، كتفان

(1) *La Rose et les épines du chemin*، للشاعر Saint-Pol Roux.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هابطتان ونظرة سئمة. فوجئت بعد انقضاء وقت طويل بالعثور على أثر ذلك الرجل حين قرأت في «قضيّة بروغلي»[1] لخيسوس إينفانتي أنّه، في العام 1968، كان رئيس شركة اسمها ماتيسا «يبحث عن تمويل بقيمة خمسة عشر إلى عشرين مليون دولار». اتّصل بليون غرونوالد، «شخص شارك في عمليّات التمويل الكبرى التي جرت في لوكسمبورغ». تمّ توقيع بروتوكول اتّفاق بين «السادة جان دو بروغلي، وراوول دو ليون، وليون غرونوالد»: إن حصلوا على القرض، فسوف يتقاضون عمولة بقيمة خمسمئة ألف دولار. في تلك الأثناء، توفّي غرونوالد حسبَ ما قرأت. هل قضى من الإعياء؟ لا بدّ من الإقرار بأنّ هذا الصنف من البشر يزاول نشاطاً منهِكاً ويقضي في الأرق ليالي كثيرة. وخلال النهار، لا يتوقّف عن تبادل المواعيد سعياً لتوقيع «بروتوكولات الاتّفاقات» تلك.

بودّي تنشّق هواء أكثر صفاء. أشعر بالدوار، لكنّني أذكر بعض «مواعيد» والدي. رافقته مرّة عند العصر إلى الشانزليزيه. استقبلنا رجل أصلع قصير القامة، يفيض

(1) *L'affaire de Broglie*، للكاتب Jesus Ynfante.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حيويّة وحفاوة، في حجرة ضيّقة لا تكاد تـتّسع لنا للجلوس. ظننته واحداً من الأقزام السبعة. كان يتكلّم بصوت منخفض، وكأنّه يشغل ذلك المكتب خلسة.

كان والدي يعطي «مواعيده» عادة في ردهة فندق كلاريدج، وكان يصطحبني معه أيّام الأحد. في ما بعد ظهيرة، بقيت على مسافة فيما كان يتداول همساً مع إنكليزيّ. حاول أن يباغته وينتزع منه عنوة ورقة وقّعها الإنكليزيّ للتوّ بالأحرف الأولى من اسمه. لكنّ الأخير تدارك الأمر والتقط الورقة في الوقت المناسب. ما كان «بروتوكول الاتفاق» ذاك؟ كان لوالدي مكتب في المبنى الضخم الأمغر في الرقم 1 من شارع لورد بايرون، حيث كان يدير الشركة الأفريقيّة للأعمال برفقة سكرتيرة تدعى لوسيان واتييه، صانعة قبّعات سابقة كان يكلّمها بدون كلفة. تلك هي إحدى ذكرياتي الأولى عن شوارع باريس: شارع بلزاك صعوداً، ثمّ ننعطف يميناً في شارع لورد بايرون. كان من الممكن الدخول إلى ذلك المكتب أيضاً من مبنى سينما النورماندي على الشانزليزيه، عبر دهليز من الأروقة والممرّات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فوق الموقد في غرفة والدي، تصطفّ مجلّدات من «القانون البحريّ» الذي كان يدرسه. كان يفكّر في إطلاق ورشة بناء ناقلة نفط على شكل سيجار. محاميا والدي الكورسيكيّان: الأستاذ مارياني الذي كنّا نزوره في منزله، والأستاذ فيتزافونا. نزهات في يوم الأحد مع والدي ومهندس إيطالي صاحب براءة اختراع لـ «أفران الضغط». كان والدي على علاقة وطيدة مع رجل كان يدعوه السيّد هيلد، كان خبيراً في «الاستشعار بالموجات الذاتيّة»، يحتفظ في كلّ الأوقات ببندول في جيبه. ذات مساء، قال لي والدي في السلّم جملة لم أفهمها جيّداً في حينها –واحدة من المرّات النادرة التي فتح لي فيها قلبه: «علينا ألّا نهمل أبداً التفاصيل الصغرى... أنا للأسف لطالما أهملت التفاصيل الصغرى».

في الفترة ذاتها بين 1957 و1958، ظهر رفيق آخر له يدعى جاك شاتيّون. عدت ورأيته بعد عشرين عاماً –وبات عندها يتّخذ اسم جيمس ب. شاتيّون. تزوّج في بداية الاحتلال حفيدة تاجر كان يعمل سكرتيراً له، وكان خلال تلك الفترة بائع خيل في نويّي. بعث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لي برسالة يكلّمني فيها عن والدي: «لا تيأس لفكرة أنّ والدك مات وحيداً. لم يكن والدك يبغض الوحدة. كان لديه مخيّلة –في الواقع موجّهة حصراً نحو الأعمال– واسعة جدّاً كان يغذّيها بعناية، فتغذّي ذهنه. لم يكن يوماً وحيداً لأنّه كان دائماً «في توافق» مع المخطّطات التي كان يبنيها، وهو ما كان يعطيه ذلك المظهر الغريب الذي كان يحيّر الكثيرين. كان يبدي فضولاً حيال كلّ شيء، حتّى لو لم يكن موافقاً عليه. ينجح دائماً في إعطاء انطباع بأنّه هادئ، في حين أنّه قد يحتدّ بسهولة ويصبح عنيفاً. حين تعترضه عقبة، كانت عيناه تومضان. تحملقان، في حين أنّه يحجبهما عادةً خلف أهدابه المتثاقلة بعض الشيء. كان قبل أيّ شيء رجلاً يتبع أهواءه ومسرّاته. ما كان يزيد من ذهول محاوريه كان تلكّؤه في الكلام وفي توضيح ما يريد قوله. كان يلمّح ببضع كلمات مبطّنة... يرفقها بإشارات من يده ويلحقها معلناً «هكذا»... مع بضع نحنحات إذا اقتضى الأمر. وإلى الكلام، لا بدّ من القول إنّه كان يتلكّأ في الكتابة أيضاً، وهو ما كان يبرّره في نظره هو نفسه بخطّه غير المفهوم».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان جيمس ب. شاتيّون يودّ منّي أن أكتب مذكّرات أحد أصدقائه، لصّ كورسيكيّ يدعى جان سارتوري، توفّي للتوّ وخالط أثناء الاحتلال جماعة شارع لوريستون وزعيمها لافون. «يؤسفني ألّا تكون تمكّنت من كتابة مذكّرات جان سارتوري، لكنّك مخطئ إن ظننت أنه كان صديقاً قديماً للافون. كان يستخدم لافون كحجاب لحماية صفقاته بالذهب والعملات الصعبة، وكان مطلوباً لدى الألمان أكثر منه لدى الفرنسيّين. هذا للتوضيح. عدا ذلك، صحيح أنّه كان يعرف الكثير عن كلّ أعضاء فرقة لوريستون».

اتّصل بي عام 1969 إثر صدور روايتي الثانية، وترك لي اسماً ورقم هاتف يمكنني الاتّصال به عليه. كان ذلك رقم شخص يدعى السيّد دو فارغا، كان فيما بعد ضالعاً في قتل جان دو بروغلي. أذكر يوم أحد قمنا فيه بنزهة إلى تلّة فاليريان، أنا ووالدي وشاتيّون ذاك، أسمر مربوع، عيناه سوداوان متّقدتان تحت أهداب ذاوية. كان يقلّنا في سيّارة بنتلي قديمة مقاعدها الجلديّة غائرة –كلّ ما تبقّى له من أملاكه. اضطرّ بعد فترة إلى التخلّي عنها أيضاً، وبات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يأتي إلى رصيف كونتي على درّاجة «فيلوسوليكس»[1]. كان مؤمناً ورعاً. سألته ذات يوم من باب الاستفزاز: «ما الفائدة من الدين؟» فأهداني سيرة ذاتيّة للبابا بيوس الحادي عشر، وعليها إهداء: «إلى باتريك، الذي سيفهم ربّما عند قراءة هذا الكتاب «ما الفائدة»...».

غالباً ما كنّا نبقى وحيدين أنا ووالدي مساء يوم السبت. كنّا نذهب إلى دور السينما على الشانزليزيه وسينما غومون بالاس. في ما بعد ظهيرة يوم من يونيو، كان الحرّ شديداً وكنّا نمشي على جادّة روششوار -لم أعد أذكر السبب. دخلنا نحتمي من الشمس في عتمة صالة صغيرة: سينما دلتا. فيلم وثائقيّ، «محاكمة نورمبرغ»، في سينما جورج الخامس. اكتشفت في الثالثة عشرة صور مخيّمات الإبادة. ثمّة شيء تغيّر بالنسبة لي في ذلك اليوم. ووالدي، ما كان رأيه؟ لم نناقش الأمر يوماً فيما بيننا، حتّى عند خروجنا من صالة السينما.

كنّا نذهب لتناول البوظة في ليالي الصيف في مقهى روك أو في فندق لا ريجانس. عشاء في مطعم «الألزاسيان»

---

(1) درّاجة ذات محرّك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الشانزليزيه أو في المطعم الصيني في شارع الكوليزيه. في المساء، كنّا نضع على مشغّل الأسطوانات الجلديّ الأحمر القاني عيّنات اسطوانات بلاستيكيّة كان يعتزم إطلاقها في السوق. وعلى المنضدة الليليّة الصغيرة، أذكر كتاباً: «كيف نكسب أصدقاء»، ما يجعلني اليوم أفهم عزلته. في صباح يوم اثنين، خلال عطلة، سمعت وقع خطى في الأدراج الداخليّة المؤدّية إلى الطابق الخامس حيث كانت غرفتي، ثمّ أصواتاً في الحمّام الكبير المجاور. كان مأمورو حجزٍ يحملون كلّ بذلات والدي وقمصانه وأحذيته. أيّ حيلة تراه ابتكرها حتّى لا يصادروا الأثاث؟

العطلة الصيفيّة في 1958 و1959 في ميجيف، حيث كنت وحيداً مع فتاة تدرس في أكاديميّة الفنون الجميلة، كانت تسهر عليّ مثل شقيقة كبرى. كان فندق «لا ريزيدانس» مغلقاً، وكأنّه مهجور. كنّا نعبر الردهة المعتمة للذهاب إلى حوض السباحة. وبعد الساعة الخامسة مساءً، كانت فرقة موسيقيّة إيطاليّة تعزف على حافّة ذاك الحوض. كان طبيب وزوجته يؤجّران غرفتين في منزلهما. زوجان غريبان. المرأة السمراء كانت تبدو مجنونة. كان لديهما ابنة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالتبنّي من عمري، رقيقة وديعة مثل كلّ الأطفال الذين لم يعرفوا الحنان، وكنت أقضي معها بعد الظهائر في قاعات الصفوف المهجورة في المدرسة المجاورة. في نور الشمس الصيفيّة، رائحة عشب وقطران.

عطلة عيد الفصح في عام 1959، مع رفيق اصطحبني الى مونتي كارلو عند جدّته، المركيزة دو بولينياك، حتّى لا أبقى محتجزاً في المدرسة الداخليّة. كانت أميركيّة. علمت فيما بعد أنّها كانت ابنة عمّ هاري كروسبي، ناشر لورنس وجويس[1] في باريس، والذي انتحر في سنّ الثلاثين. كانت تقود سيّارة سوداء بالدفع الأماميّ. كان زوجها يعنى بإنتاج نبيذ الشمبانيا، وكانا قبل الحرب على علاقة مع يواكيم فون ريبنتروب[2]، يومَ كان هو نفسه تاجر شمبانيا. لكنّ والد رفيقي كان مقاوماً سابقاً وتروتسكيّاً. كان له كتابٌ عن الشيوعيّة في يوغوسلافيا، كتب مقدّمته سارتر. لن أعرف كلّ ذلك إلّا فيما بعد. في مونتي كارلو، كنت أقضي ما بعد ظهائر كاملة عند تلك المركيزة، أتصفّح

(1) D.H. Lawrence و James Joyce.

(2) دبلوماسي وسياسي ألمانيّ كان وزير خارجيّة لألمانيا النازيّة بين 1938 و1945. كان قبل ذلك رجل أعمال وكان يستورد النبيذ والشمبانيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألبومات صور جمعتها منذ العشرينيّات، تظهر حياة الرغد وخلاء البال التي عاشتها مع زوجها. أرادت أن تعلّمني القيادة، فسلّمتني مقود سيّارتها السيتروين 15 حصاناً على طريق متعرّجة. أخفقت منعطفاً وكدنا نسقط في الهاوية. اصطحبتنا أنا وحفيدها إلى نيس لمشاهدة لويس ماريانو[1] يغنّي في سيرك بيندر.

أقمت عدّة فترات بين 1959 و1960 في إنكلترا، في بورنموث تحديداً. فرلين أقام في تلك الناحية: شاليهات مبعثرة، حمراء بين خضرة الأشجار وفيلات المنتجعات الساحليّة البيضاء... لم أكن أنوي العودة إلى فرنسا. لم تردني أيّ أنباء عن والدتي. وكنت أعتقد أنّ الأمر يناسب والدي، إن أنا بقيت في إنكلترا لفترة أطول ممّا كان مقرّراً. العائلة التي كنت أقيم عندها لم يعد بوسعها إيوائي. فقصدت مكتب الاستقبال في أحد الفنادق، حاملاً الثلاثة آلاف فرنك قديم التي كنت أملكها، فسمحوا لي بالنوم مجّاناً في صالون لم يكن مستخدماً في

(1) لويس ماريانو (1914–1970) مغنّي أوبريت شهير من أصل باسكيّ رافق سيرك بيندر بين 1957 و1959 وجال معه أرجاء فرنسا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطابق الأرضيّ. ثمّ فتح لي مدير المدرسة حيث كنت أتابع دروساً بالإنكليزيّة كلّ صباح، حجرة في مطلع الدرج، أشبه ما تكون بمستودع صغير لتوضيب المهملات. فهربت إلى لندن. وصلت في المساء إلى محطّة واترلو. عبرت جسر واترلو. وتملّكني الذعر من فكرة أن أبقى وحيداً في تلك المدينة التي بدت لي أكبر من باريس. وفي ترافلغار سكوير، دخلت كشكاً أحمر واتّصلت بوالدي على حسابه. حاولت أن أخفي عليه هلعي. لم يستغرب كثيراً لمعرفة أنّني في لندن وحدي. وتمنّى لي حظّاً سعيداً بصوت غير مبالٍ. قبلوا بمنحي غرفة في فندق صغير في بلومزبيري، رغم أنّني كنت قاصراً. لكن لليلة واحدة لا غير. وفي اليوم التالي، جرّبت حظّي في فندق آخر في ماربل آرتش. هناك أيضاً، غضّوا الطرف عن سنّي التي لم تكن تخطّت الخامسة عشرة، ووضعوا تحت تصرّفي غرفة ضيّقة. كان ذلك زمن موجة «فتيان تيدي»[1] في إنكلترا،

(1) موجة ثقافية للشبيبة ظهرت في بريطانيا في الخمسينيّات، فيما كانت البلاد تخرج من حقبة التقشّف التي تلت الحرب، انتشرت بين شباب اعتمدوا طراز ملابس مستوحى من الحقبة الإدواردية، وغالباً ما نعتوا بالعنف والقسوة، وارتبطت منذ نشأتها بموسيقى الروك اند رول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكانت كريستين كيلر[1] قد وصلت للتوّ إلى لندن، قادمة من بلدتها. علمْت فيما بعد أنّها كانت تعمل في ذلك الصيف نادلة في مطعم يونانيّ صغير في شارع بيكر، على مقربة من المطعم التركيّ حيث كنت أتناول العشاء قبل أن أتسكّع قلقاً على طول شارع أوكسفورد. «وتوماس دو كوينسي، متناولاً الأفيون، سمّ العذوبة والطهر، يمضي حالماً بحبيبته المسكينة آن...»[2]

في ليلة من ليالي سبتمبر 1959، كنت مع والدتي وأحد أصدقائها، في مطعم عربيّ اسمه «الكتبيّة»، في شارع ليزيكول[3]. الساعة متأخّرة. والمطعم مقفر. كنّا ما زلنا في فصل الصيف. الجوّ حارّ. الباب مشرّع على الشارع. في تلك السنوات الغريبة من شبابي، كانت العاصمة الجزائريّة امتداداً لباريس، وباريس كانت تتلقّى موجات العاصمة الجزائريّة وأصداءها، وكأنّ الرياح الجنوبيّة الحارّة تعصف

(1) عارضة أزياء وراقصة إنكليزيّة، عرفت خصوصاً بإثارتها فضيحة عام 1963 إبّان الحرب الباردة جرّاء ارتباطها بعلاقة مع وزير الدولة البريطاني للحرب آنذاك جون بروفومو ومع الملحق العسكري في سفارة الاتّحاد السوفياتي إيفغيني إيفانوف في آن.

(2) قصيدة لغيّوم أبولينير.

(3) شارع المدارس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بأشجار حدائق التويلري، حاملةً معها بعضاً من رمال الصحراء والشواطئ... في الجزائر وباريس، درّاجات «الفيسبا» ذاتها، ملصقات الأفلام ذاتها، الأغاني ذاتها تنبعث من أجهزة الجوك-بوكس في المقاهي، وسيّارات «الدوفين»[1] ذاتها في الشوارع. بعد فترة من الوقت، فجّروا «الكتبيّة». وذات مساء في سان جرمان دي بريه -أم كان ذلك في الجزائر العاصمة؟- فجّروا متجر جاك رومولّي للقمصان.

في ذاك الخريف من العام 1959، كانت والدتي تمثّل في عرض في مسرح فونتين. في مساء أيّام السبت، حين كنت أخرج من المدرسة، كنت أنجز فروضي المدرسيّة أحياناً في مكتب مدير ذلك المسرح. وكنت أتسكّع في الجوار. اكتشفت حيّ بيغال، وكان أقلّ قرويّةً من سان جرمان دي بريه، وأكثر شبهةً بقليل من الشانزليزيه. هناك، في شارع فونتين، وفي ساحة بلانش وشارع فروشوه، لامست لأوّل مرّة أسرار باريس، وبدأت أحلم حياتي، من غير أن أدرك ذلك بوضوح.

(1) نموذج من سيّارات رينو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في رصيف كونتي، كان هناك وافدان جديدان يسكنان الشقّة: روبير فلاي، وهو صديق لوالدي من أيّام الشباب، يؤدّي دور السائق له ويرافقه أينما ذهب في سيّارة سيتروين دي إس 19، وروبير كار، وهو خيّاط ارتبطت به والدتي أثناء تصوير فيلم «الحلقة المفرغة»[1] لماكس بيكاس، حيث لعبت دور أجنبيّة ثريّة ومريبة كانت عشيقة رسّام شابّ.

في يناير 1960، هربت من المدرسة لأنّني كنت مغرماً بفتاة تدعى كيكي داراغان، التقيت بها عند والدتي. وبعدما مشيت حتّى حظائر مطار فيلاكوبليه، ومن هناك توجّهت بالباص والمترو إلى سان جرمان دي بريه، صادفت كيكي داراغان في مقهى مالافوس الذي كان يبيع التبغ أيضاً، عند زاوية شارع بونابارت ورصيف النهر. كانت جالسة هناك برفقة أصدقاء من طلّاب معهد الفنون الجميلة. نصحوني بالعودة إلى المنزل. دققت الباب لكنّ أحداً لم يفتح. لا بدّ أنّ والدي غادر مع روبير فلاي في السيتروين دي إس 19. أمّا والدتي، فغائبة كالعادة. لا بدّ لي من المبيت في مكان ما. عدت إلى المدرسة الداخليّة بالمترو والباص،

---

(1) *Le Cercle vicieux*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعدما طلبت بعض النقود من كيكي وأصدقائها. وافق المدير على بقائي حتّى شهر يونيو. على أن أُطرد عند نهاية العام الدراسيّ.

في أيّام الخروج النادرة من المدرسة الداخليّة، كان والدي وروبير فلاي يصطحبانني معهما أحياناً في تجوالهما. كانا يذرعان أرياف مقاطعة ليل دو فرانس[1]. يلاقيان كتّاب عدل ويزوران أملاكاً من جميع الأصناف. يتوقّفان في أنزال في الغابات. يبدو أنّ والدي كان يريد لسبب اضطراريّ ما، قضاء عطلة في الريف. في باريس، مداولات تدور همساً بين روبير فلاي وولدي في قعر مكتب أوافيهما فيه، في 73 جادّة أوسمان. كان لروبير فلاي شاربان أشقران. عدا قيادة سيّارة السيتروين، لم أكن أدري ما يمكن أن تكون نشاطاته. شرح لي أنّه بين الحين والآخر يقوم بـ «جولة» في بيغال، ثمّ يعود إلى رصيف كونتي قرابة السابعة صباحاً. أمّا روبير كار فقد حوّل إحدى غرف الشقّة إلى مشغل خياطة. وقد أطلق

(1) ليل دو فرانس (حرفيّاً: «جزيرة فرنسا») هو اسم المنطقة المحيطة بباريس، أي باريس وضواحيها والبلدات الصغيرة القريبة منها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عليه والدي لقب «تروفالدان»، باسم إحدى شخصيّات الكوميديا ديلّارتي. وروبير كار هو الذي كان يصمّم في الأربعينيّات ملابس أوائل المتشبّهين بالنساء: لا زامبيلّا، ولوكي سارسيل، وزيزي موستيك.

رافقت والدي إلى شارع كريستوف كولومب، حيث زار أحد «رفاقه» الجدد، ويدعى مورافسكي، في منزل فخم في ذلك الشارع، الرقم 12 أو 14. كنت أنتظره وأنا أمشي ذهاباً وإياباً تحت أغصان أشجار الكستناء. كان الربيع في بداياته. وكانت والدتي تمثّل في مسرحيّة في مسرح «تياتر ديزار»[1] الذي كانت تديره سيّدة تدعى ألكسندرا روبيه جانسكي. كانت المسرحيّة بعنوان «النساء يردن أن يعرفن»[2]. ألّفها صانع منتجات حريريّة من ليون ورفيقته، وتكفّلا بتمويلها بالكامل، فاستأجرا بنفسهما المسرح ودفعا للممثّلين. كانت الصالة فارغة في كلّ مساء. والمشاهدون الوحيدون كانوا الأصدقاء القلائل للصناعيّ المتحدّر من ليون. وبحكمةٍ نصح المخرج صانعَ الحرائر بألّا يدعو

(1) مسرح الفنون.

(2) *Les femmes veulent savoir*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النقّاد إلى العرض، بحجّة أنّهم «بغيضون»...

في آخر يوم أحد قبل العطلة الصيفيّة، قادني روبير فلاي ووالدي عند المساء في سيّارة السيتروين دي إس 19 إلى مدرسة مونسيل، وانتظرا أن أنتهي من توضيب حقيبتي. وبعدما وضعت الحقيبة في صندوق السيّارة، غادرت جوي أون جوزاس نهائيّاً، سالكاً الطريق العامّ غرباً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يبدو أنّهم أرادوا إبعادي عن باريس. ففي سبتمبر 1960، كنت مسجّلاً في مدرسة سان جوزيف ببلدة تون، في جبال سافوا العليا. كان السيّد جاك غيران وزوجته ستيلّا، عمّتي، مسؤولَين عنّي. كانا يستأجران على ضفة بحيرة آنسي، في فيرييه، منزلاً أبيض على نوافذه درف خشبيّة خضراء. لكن عدا أيّام الأحد النادرة التي كان يؤذَن فيها للتلاميذ بالخروج، والتي لم أكن أغادر المدرسة خلالها سوى لبضع ساعات، لم يكن يسعهما أن يفعلا من أجلي شيئاً ذا بال.

«جاكي» غيران يعمل لمجرّد المتعة «في النسيج»، هو متحدّر من ليون، بوهيميّ، يهوى الموسيقى الكلاسيكيّة، والتزلّج والسيّارات الجميلة. أمّا ستيلّا غيران، فهي تراسل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المحامي بيار جاكو[1] في جنيف، الذي كان في حينه مداناً بالقتل ومسجوناً. وحين أُطلق سراحه، ذهبت لمقابلته في جنيف. التقيت به معها قرابة العام 1963 في بار فندق موفنبيك. حدّثني في الأدب، وخصوصاً في مالّارميه.

كان اسم جاكي غيران غطاءً لعمّي رالف، شقيق والدي الأصغر: فـ «مؤسّسات غيران»، في 74 شارع هوتفيل، كانت في الواقع بإدارة عمّي رالف. لم أتبيّن يوماً حقيقة وظيفة مؤسّسات غيران تلك، التي كانت أشبه بمستودع يقيم عمّي رالف مكتبه في قعره ويبيع فيه «معدّات». سألته بعد بضع سنوات لماذا كانت تلك المؤسّسات تحمل اسم «غيران» وليس اسمه هو «موديانو». فأجابني بلكنته الباريسيّة: «تعرف، الأسماء ذات الوقع الإيطالي لم تكن مستحبّة بعد الحرب..».

في آخر ما بعد ظهائر العطلة، قرأت على شاطئ فيرييه دو لاك الصغير «الشيطان في الجسد»[2] و«الشاباط»[3].

---

(1) Pierre Jaccoud محام وسياسيّ سويسريّ أدين بالقتل في قضيّة أثارت سجالاً كبيراً وكانت موضع فضيحة قضائيّة في سويسرا في الستينيّات.

(2) *Le Diable au corps* (1923) رواية للكاتب الفرنسي ريمون راديغيه.

(3) *Le Sabbat* رواية للكاتب الفرنسي موريس زاكس صدرت بعد وفاته عام 1945.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وقبل أيّام قليلة من بدء العام الدراسي الجديد، بعث لي والدي برسالة صارمة كفيلة بأن تنال من معنويّات فتىً على وشك الدخول إلى سجن مدرسة داخليّة. هل أراد بذلك أن يريح ضميره ويعلّل نفسه بأنّه كان على حقّ بترك فتىً جانح لمصيره؟ «**ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي**، باريس الدائرة السادسة، 8 سبتمبر 1960. أعيد إليك الرسالة التي بعثتها لي من سان لو. لا بدّ أن أقول لك أنّني لم أصدّق للحظة عند تسلّم هذه الرسالة، أنّ رغبتك في العودة إلى باريس مردّها التحضير لامتحان محتمل للانتقال إلى مدرستك المقبلة. لذلك قرّرتُ أن تغادر فور صباح اليوم التالي إلى آنسي في قطار الساعة التاسعة. أترقّب تصرّفك في هذه المدرسة الجديدة، ولا يسعني سوى أن أتمنّى من أجلك أن يكون سلوكك مثاليّاً. كنت أنوي القدوم إلى جنيف لزيارتك. هذه الرحلة تبدو لي في الوقت الحاضر من غير فائدة. **ألبير موديانو**».

قامت والدتي بزيارة خاطفة إلى آنسي اشترت لي فيها قطعتين من مستلزماتي، قميصاً رماديّاً وحذاءين بنعلين من المطّاط بسعر مخفّض، داما لي عشر سنوات من غير

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن ينفذ إليهما الماء مرّة. وغادرتني قبل وقت طويل من مساء دخولي المدرسة الداخليّة. أمر شاقّ على الدوام أن نرى طفلاً يدخل المدرسة الداخليّة، ونحن على يقين من أنّه سيبقى سجيناً فيها. بودّنا استبقاؤه. هل طرحَتْ على نفسها السؤال؟ يبدو أنّني لم أنل استحسانها. ثمّ كان عليها أن تغادر إلى إسبانيا حيث كانت ستمكث لفترة طويلة.

سبتمبر من جديد. العودة إلى المدرسة، في مساء يوم أحد. الأيّام الأولى في ثانويّة سان جوزيف كانت شاقّة عليّ. لكنّني اعتدت الأمر سريعاً. مضت عليّ أربع سنوات وأنا في مدارس داخليّة. رفاقي في تون كانوا في معظمهم من أصول قرويّة، وكنت أفضّلهم على الأنذال المترفين في مونسيل.

للأسف، كانت القراءات تحت المراقبة. وفي العام 1962، طُردت لبضعة أيّام إثر مطالعة «السنابل الخضراء»[1]. حصلت بفضل أستاذي للّغة الفرنسيّة الأب أكامبريه على إذن «خاصّ» لمطالعة رواية «السيّدة بوفاري»[2] المحظورة

(1) *Le Blé en herbe* (1923) رواية للكاتبة كوليت.

(2) *Madame Bovary* رواية للكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على باقي التلاميذ. احتفظت بنسخة الرواية التي كُتب عليها: «تمّت الموافقة. الصفّ الأوّل ثانويّ»، مع توقيع مدير الثانويّة الأب جانان. كان الأب أكامبريه نصحني بقراءة رواية لمورياك، «دروب البحر»[1]، أعجبتني كثيراً، وخصوصاً النهاية، حتّى أنّني ما زلت حتّى اليوم أذكر الجملة الأخيرة منها: «... كما في فجر الأيّام الخوالي الحالك». جعلني أقرأ أيضاً «المقتلَعون من جذورهم»[2]. هل أحسّ بأنّ ما كنت أتوق إليه قليلاً كان قرية في سولونيا أو في فالوا، أو بالأحرى الصورة التي كنت أكوّنها عنها في أحلامي؟ كانت قراءاتي المسائيّة في المهجع، موضّبة في المنضدة الليليّة: «مهنة العيش»[3] لبافيزي. لم يخطر لهم أن يحرّموه عليّ. «مانون ليسكو»[4]. «بنات النار»[5].

---

(1) *Les Chemins de la mer* (1939) رواية لفرنسوا مورياك.

(2) *Les Déracinés* (1897) رواية لموريس بارّيس.

(3) *Le Métier de vivre* يوميّات الشاعر الإيطالي تشيزاري بافيزي صدرت بعد وفاته عام 1952.

(4) *Manon Lescaut* رواية للكاتب الفرنسي الأب بريفو صدرت عام 1731.

(5) *Les Filles du feu* مجموعة قصصيّة وشعريّة للشاعر الفرنسي جيرار دو نرفال صدرت عام 1854.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«مرتفعات ويذرينغ»[1]. «يوميّات كاهن في الريف»[2].

الإذن بالخروج مرّة في الشهر لبضع ساعات، ثمّ حافلة مساء الأحد تعيدني إلى الثانويّة. كنت أنتظرها عند أسفل شجرة باسقة، قرب بلديّة فيرييه دو لاك. غالباً ما كنت أضطرّ إلى البقاء واقفاً طوال الطريق. كان هناك فلّاحون يعودون إلى مزارعهم بعد قضاء يوم الأحد في المدينة. كان الليل يهبط. نعبر أمام قصر مانتون سان برنار، مقبرة قرية أليكس الصغيرة ومدفن أبطال هضبة غليار[3]. حافلات مساء الأحد تلك، وتلك القطارات بين آنسي وباريس، مكتظّة بالركّاب كما في وقت الاحتلال. ثمّ إنّ الحافلات والقطارات كانت لا تزال تقريباً على ما كانت عليه آنذاك.

انقلاب الجزائر[4] الذي تابعت وقائعه في المهجع،

(1) *Les Hauts de Hurlevent (Wuthering Heights)* رواية للشاعرة والكاتبة البريطانيّة إيميلي برونتي صدرت عام 1847 وتعتبر من كلاسيكيّات الأدب الإنكليزي.

(2) *Journal d'un curé de campagne* رواية لجورج برنانوس صدرت عام 1936.

(3) هضبة كانت من مراكز المقاومة خلال الحرب العالميّة الثانية.

(4) يُعرف بـ «انقلاب الجنرالات»، أُحبط بعد أقلّ من أسبوع، وقد قام به، في 21 أبريل 1961، أربعة جنرالات فرنسيّين في الجزائر المستعمَرة، احتجاجاً على سياسة شارل ديغول التي عدّوها تخلّياً عن الحضور الفرنسيّ في الجزائر أو عمّا كان يُدعى «الجزائر الفرنسية».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بواسطة راديو ترانزيستور صغير، وأنا أقول لنفسي إنّ عليّ اغتنام الهلع العامّ المخيِّم لأهرب من الثانويّة. لكن سرعان ما استتبّ النّظام من جديد في فرنسا، في مساء يوم الأحد التالي.

الأضواء الليليّة الخافتة في المهجع. العودة إلى المهجع بعد العطلات. الليلة الأولى تكون شاقّة. نستيقظ ولا ندري أين نحن. الأضواء الليليّة تذكّرنا بذلك بشكل فجّ. الأضواء تطفأ في الساعة التاسعة مساء. السرير الضيّق جدّاً. الشراشف التي لا يبدّلونها على مدى أشهر والتي تبعث رائحة نتنة. الملابس أيضاً. النهوض الساعة السادسة والربع صباحاً. الاغتسال بشكل مقتضب بالماء البارد، أمام مغاسل تمتدّ على طول عشرة أمتار، أحواض شرب للمواشي يعلوها صفّ من الصنابير. الفروض. الفطور. قهوة بلا سكّر في قصعة معدنيّة. لا زبدة. في الفرصة الصباحيّة، تحت سقف الملعب، بوسعنا أن نقرأ في مجموعات نسخة من صحيفة «ليكو ليبرتيه»[1]. توزيع شرحة من الخبز الحافّ ومربّع من الشوكولاتة المُرّة في

(1) *L'Echo Liberté*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الساعة الرابعة بعد الظهر. عصيدة الذرة للعشاء. أتضوّر جوعاً. أشعر بالدوار. في أحد الأيّام، اعترضنا مع بعض الرفاق مسؤولَ الماليّة، الأب برون، متشكّين من أنّنا لا نحصل على ما يكفي من الطعام. نزهة للصفّ بعد ظهر الخميس في جوار تون. أغتنم المناسبة لشراء مجلّات «لي ليتر فرانسيز»، «آر»، و«نوفيل ليتيرير»[1] من القرية. أنكبّ على قراءتها من الغلاف إلى الغلاف. كانت تلك المجلّات كلّها تتكدّس على منضدتي الليليّة. فرصة ما بعد الغداء، كنت أستمع خلالها إلى الترانزيستور. هناك، خلف الأشجار، أنين المنشرة الرتيب. أيّام ماطرة تطول بلا نهاية في الملعب المسقوف. صفّ المراحيض التركيّة بأبوابها التي لا تغلق بإحكام. الصلاة في الكنيسة الصغيرة في المساء قبل العودة في الصفّ إلى المهجع. الثلج طوال ستّة أشهر. ذلك الثلج، لطالما وجدت فيه شيئا مؤثّراً وودوداً. وفي تلك السنة، أغنية على الترانزيستور: «لا، لم أعد أذكر اسم المرقص الصغير المنسيّ»[2]...

(1) *Nouvelles littéraires Les Lettres françaises, Arts*.

(2) *Non, je ne me souviens plus du nom du bal perdu...* أغنية رائجة للممثّل والمغنّي والفكاهيّ الفرنسي بورفيل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تلقّيت خلال العام الدراسي رسائل نادرة من والدتي، أرسلتها من أندلوسيا. وصلتني معظم تلك الرسائل إلى منزل عائلة غيران، في فيربيه دو لاك، باستثناء رسالتين أو ثلاث وصلت إلى المدرسة. كان نظام المدرسة يقضي بفتح الرسائل التي يتمّ تلقّيها وإرسالها، واستغرب الأب جانان أمر تلك الوالدة بلا زوج في أندلوسيا. كتبت لي من إشبيلية: «يجدر بك أن تبدأ بمطالعة مونترلان. أعتقد أنّك قد تتعلّم الكثير منه. اسمعني بحقّ، يا ابني الكبير. طالعْ مونترلان، أرجوك، قم بذلك. سوف تجد لديه نصائح سديدة. كيف يجدر بشابّ أن يتصرّف حيال النساء مثلاً. حقّاً، إن قرأت «الصبايا»[1] لمونترلان، فسوف تتعلّم الكثير». فاجأني إلحاحها كثيراً: لم تكن والدتي قرأت سطراً واحداً لمونترلان. صديقها الصحافيّ جان كو هو الذي أوعز إليها بأن تعطيني تلك النصيحة. أجد نفسي في حيرة اليوم: هل كان يودّ حقّاً أن يصبح مونترلان مرشدي في الحياة الجنسيّة؟ قمت إذاً بقراءة ساذجة لرواية «الصبايا».

(1) *Les Jeunes Filles* لمونترلان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنا أفضّل بين أعمال مونترلان «الملفّ الباريسيّ»[1]. في 1961، بعثت لي والدتي رسالة ثانية أثارت عن غير قصدٍ ريبة الأب جانان. ضمّنت والدتي رسالتها تلك قصاصات صحف عن مسرحيّة بعنوان «إشارة كيكوتا»[2] كانت تمثّل فيها وتجول بها مع فرنان غرافي.

عيد الميلاد عام 1960، في روما مع والدي وصديقته، إيطاليّة شديدة العصبيّة، تصغره بعشرين عاماً، شعرها أشقر بلون القشّ، ومظهرها نسخة زائفة عن ميلين دومونجو[3]. ثمّة صورة عن سهرة العيد التقطت في نادٍ ليليّ قريب من شارع فينيتّو، تختزل تلك العطلة. أبدو فيها مطرقاً في أفكاري، وبعد مضيّ أربعين عاماً، أتساءل ما الذي كنت أفعله هناك. أقول لنفسي من باب التعزية إنّ الصورة مفبركة. كانت ميلين دومونجو الزائفة تريد الحصول من الكنيسة على بطلان زواج أوّل. رافقْتُها بعد ظهر أحد الأيّام إلى الفاتيكان، لزيارة منسنيور يدعى

(1) *Le Fichier parisien* لمونترلان.

(2) *Le Signe de Kikota* للكاتب المسرحي روجيه فردينان.

(3) Mylène Demongeot ممثّلة من نجوم السينما الفرنسيّة في الخمسينيّات والستّينيّات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بندولا. كان رجل الدين ذاك، رغم ردائه وصورة البابا المعروضة على مكتبه وعليها إهداء بخطّ يد الحبر الأعظم، يشبه الانتهازيّين الذين كان والدي يلتقي بهم في فندق كلاريدج. بدا والدي في عيد الميلاد ذاك متعجّباً لرؤية التقرّحات العميقة على أصابعي بسبب البرد.

المدرسة الداخليّة من جديد، حتّى العطلة الصيفيّة. في بداية يوليو، عادت والدتي من إسبانيا. ذهبت لملاقاتها في مطار جنيف. وجدتها صبغت شعرها بلون داكن. استقرّت في فيرييه دو لاك، عند الزوجين غيران. كانت مفلسة تماماً. لا شيء سوى زوج من الأحذية. لم تكن الجولة في إسبانيا مثمرة، ورغم ذلك لم تفقد شيئاً من عنجهيّتها. تروي بزهوٍ قصصاً «رائعة» عن أندلوسيا وعن مصارعي الثيران. لكن تحت طلاء المغالاة والجموح، لم يكن القلب رقيقاً. قضى والدي بضعة أيّام في الجوار، برفقة المركيز فيليب دو د. الذي كان ينجز معه أعمالاً. رجل أشقر ذو شاربين، طويل القامة جهوريّ الصوت، تتبعه عشيقة سمراء. استعار من والدي جواز سفره للذهاب إلى سويسرا. كانا متشابهين بالقامة والشاربين والقوام، وكان د. فقد أوراقه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إذ غادر تونس على عجل بسبب أحداث بنزرت. أذكر نفسي محاطاً بوالدي، فيليب دو د. والعشيقة السمراء، على شرفة مطعم «بير بيز»[1] في تالوار، وأتساءل من جديد ما الذي كنت أفعله هناك. في آب، غادرنا، أنا ووالدتي، إلى كنوك لو زوت، حيث استضافنا أفراد عائلة كانت صديقة لها قبل الحرب في بيتهم، فيلّا صغيرة. كانت تلك بادرة طيّبة من جانبهم، وإلّا لكنّا اضطررنا إلى النوم في العراء أو في مأوى لـ «جيش الخلاص»[2]. شبيبة مرفّهة بليدة ترتاد نوادي الكارتينغ. كان صناعيّون من غنت يذكّر سلوكهم المستهتر المتغطرس بأصحاب يخوت، يتبادلون التحيّة بأصواتهم الرزينة العريضة، بلغة فرنسيّة يجهدون لإعطائها وقعاً إنكليزيّاً. كان صديق شباب لوالدتي أشبه بطفل هرم سائب، يدير نادياً ليليّاً خلف الكثبان، من ناحية اوستانده. ثمّ عدت وحيداً إلى سافوا العليا وعادت والدتي إلى باريس. بدأت بالنسبة لي سنة دراسيّة جديدة في

---

(1) مطعم Père Bise.

(2) بالرغم من التسمية، ليس المقصود هنا جيشاً بل جماعة مسيحية بروتستانتية مستقلة عن الكنائس تقوم بأعمال خيريّة لمساعدة الفقراء ومن هم بلا مأوى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثانويّة سان جوزيف.

عطلة جميع القدّيسين عام 1961. شارع روايال في آنسي، تحت المطر والثلج الذائب. في واجهة المكتبة، رواية مورافيا، «السأم»، وعليها شريط كُتب عليه: «والتحرّر منه بالإيروسيّة»[1]. خلال عطلة عيد جميع القدّيسين الكئيبة تلك، قرأت «الجريمة والعقاب»[2]، وكان ذلك عزائي الوحيد. أصبت بالجرب. قصدت طبيبة عثرت على اسمها في دليل آنسي. بدت مندهشة لحالتي الواهنة. سالتني: «هل لديك أهل؟» أمام حنوّها ورفقها الأموميّ، تمالكت نفسي حتّى لا أنهار بالبكاء.

في يناير 1962، رسالة من والدتي لم تقع لحسن الحظّ بين يدي الأب جانان: «لم أتّصل بك هذا الأسبوع، لم أكن في المنزل. ذهبت مساء الجمعة إلى حفل الكوكتيل الذي أقامه ليتفاك في موقع تصوير فيلمه. ذهبت أيضاً إلى العرض الأوّل لفيلم تروفو «جول وجيم»[3]، وهذا المساء، سأذهب لمشاهدة مسرحيّة كالديرون في المسرح

(1) *L'Ennui*. Et sa diversion: l'érotisme.

(2) *Crime et Châtiment* لدوستويفسكي.

(3) *Jules et Jim* للمخرج فرنسوا تروفو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوطني الشعبيّ... أفكّر بك وأعرف كم أنّك تعمل بجهد. كن شجاعاً يا بنيّ العزيز. ما زلت غير نادمة على رفضي التمثيل في مسرحيّة مع بورفيل. سوف أكون تعيسة إن لعبت دوراً بذيئاً كهذا. آمل أن أجد عرضاً آخر. لا تظنّ أنّك غبت عن بالي، لكنّني لا أجد وقتاً لأرسل لك طروداً».

في فبراير 1962، اغتنمت عطلة ثلاثاء المرفع حتّى أستقلّ قطاراً مكتظّاً بالركّاب إلى باريس، وحرارتي 39 درجة. كنت آمل أن يقبل والداي عند رؤيتي مريضاً بأن يحتفظا بي لبعض الوقت في باريس. كانت والدتي قد استقرّت في الطابق الثالث من الشقّة، الذي فرغ من الأثاث إلّا من كنبة غائرة. أمّا والدي، فكان يقيم في الطابق الرابع مع ميلين دومونجو الزائفة. وجدت من جديد عند والدتي الصحافي جان كو، يحميه حارس شخصيّ بسبب اعتداءات منظّمة الجيش السرّي[1]. شخص غريب حقّاً، ذاك السكرتير السابق لسارتر، رجل ذو رأسٍ وَشَقٍ

(1) Organisation de l'armée secrete (OAS) منظمة فرنسيّة مؤيدة لـ «الجزائر الفرنسيّة» انتهجت العمل المسلّح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومفتون بمصارعي الثيران. في الرابعة عشرة من عمري، أقنعته بأنّ ابن ستافيسكي[1] ينام بجواري في المهجع، وأنّ رفيقي هذا الذي يتّخذ اسماً مستعاراً أسرّ لي بأنّ والده لا يزال على قيد الحياة في مكان ما في أميركا الجنوبيّة. حضر كو إلى الثانويّة في سيّارة سيتروين أربعة أحصنة، عازماً على التعرّف بأيّ ثمن على «ابن ستافيسكي»، على أمل تحقيق سبق صحافيّ. التقيت من جديد في ذلك الشتاء أيضاً بجان نورمان (المعروف باسم جان دوفال)، وهو صديق لوالدتي كان ينصحني حين كنت في الحادية عشرة بمطالعة كتب من السلسلة السوداء[2]. لم يكن بوسعي أن أعرف آنذاك، في العام 1956، أنّه كان خارجاً للتوّ من السجن. كان هناك أيضاً ميراي أوروسوف. كانت تنام في الصالون، على الكنبة القديمة. سمراء في الثامنة والعشرين أو الثلاثين من العمر. عرفتها والدتي في أندلوسيا. كانت متزوّجة من روسيّ يدعى إيدي أوروسوف، ويُلقّب بـ

(1) ألكساندر ستافيسكي (1886–1934)، رجل مال فرنسيّ كان ضالعاً في فضيحة اختلاس أموال وعُثر عليه ميتاً في مسكنه، ما أثار سجالاً حول ما إذا كان انتحر حسب الرواية الرسميّة أو قُتل.
(2) سلسلة Série Noire للروايات البوليسيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«القنصل»، لأنّه يشرب بقدر شخصيّة مالكولم لاوري[1] كوكتيلات «كوبا ليبري». كانا يديران فندقاً-مشْرباً في توريمولينوس. كانت هي فرنسيّة. وروت لي أنّه حين كانت في السابعة عشرة من عمرها، في صباح اليوم الذي كان يفترض بها خوض امتحانات الباكالوريا فيه، لم يرنّ المنبّه. فبقيت نائمة حتّى الظهر. كان ذلك في مكان ما صوب مقاطعة اللّاند. في اللّيل، كانت والدتي تغيب، فأبقى برفقة ميراي أوروسوف. لم يكن بوسعها أن تغفو في تلك الكنبة القديمة الغائرة. وأنا، كان لديّ سرير كبير... وذات صباح، كنت معها في ساحة الأوديون. قرأت لنا غجريّة طالعنا في خطوط الكفّ، تحت قنطرة ممرّ كور دو كوميرس سانت أندريه. قالت لي ميراي أوروسوف إنّها تتشوّق لمعرفة كيف سأكون بعد عشر سنوات.

العودة إلى تون في طقس مارس الكئيب. قام أسقف آنسي بزيارة رسميّة للثانويّة. قبّلنا خاتمه. خطاب. قدّاس. وتلقّيت من والدي رسالة لم يفتحها الأب جانان، كانت

---

(1) «القنصل»، شخصيّة رواية «تحت البركان» *Under the Volcano* لمالكولم لاوري، صدرت عام 1947.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ستمثّل رسالة والد صالح لابنه الصالح، لو كانت فقط مطابقة للواقع: «2 مايو 1962. عزيزي باتريك، يجب أن نتناقش في كلّ شيء وبصراحة مطلقة. إنّها الوسيلة الوحيدة التي لا بديل عنها حتّى لا نصبح غريبين أحدنا عن الآخر مثلما يحصل أحياناً كثيرة للأسف في العديد من العائلات. إنّني سعيد لأنّك كلّمتني عن المشكلة التي تواجهها اليوم: ماذا ستفعل لاحقاً، في أيّ اتّجاه توجّه حياتك. شرحت لي من جهة أنّك أدركت أنّ الشهادات ضروريّة للفوز بمنصب جيّد، ومن جهة أخرى أنّك بحاجة إلى التعبير عن نفسك من خلال تأليف كتب أو مسرحيّات، وأنّك تودّ أن تكرّس نفسك كليّاً لذلك. معظم الرجال الذين حقّقوا أكبر نجاحات أدبيّة، بمعزل عن بعض الاستثناءات النادرة، أتمّوا دراسات لامعة. أنت نفسك تعرف مثلي نماذج عديدة: سارتر ما كان كتب بعض مؤلّفاته لو لم يتابع دراساته حتّى التبريز في الفلسفة. كلوديل كتب «حذاء الساتان»[1] حين كان ملحقاً شابّاً في السفارة في اليابان، بعدما تخرج بتميّز من معهد العلوم

(1) *Le Soulier de satin*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السياسيّة. رومان غاري الذي فاز بجائزة غونكور، تلميذ سابق في معهد العلوم السياسيّة وقنصل في الولايات المتّحدة». كان يتمنّى لو أصبح مهندساً زراعيّاً. كان يعتقد أنّ هذه مهنة لها مستقبل. إن كان يعلّق هذا القدر من الأهميّة على الدراسات، فذلك لأنّه هو نفسه لم يدرس شيئاً، وكان يشبه بعض الشيء رجال العصابات أولئك الذين يصرّون على أن تتربّى بناتهم في مدرسة داخليّة عند الراهبات. كان يتكلّم بلكنة باريسيّة طفيفة -لكنة حيّ هوتفيل، وشارع «بوتي زوتيل»[1]، وحيّ تريفيز، حيث تُسمع وسط الصمت رقرقة سبيل الماء تحت الأشجار. كان يستخدم بين الحين والآخر كلمات عاميّة، لكنه كان بوسعه أن يوحي بالثقة لمموّلين، إذ يبدو بقامته الطويلة وبذلاته الرزينة الصارمة، رجلاً ودوداً وكتوماً.

اجتزتُ امتحانات الباكالوريا في آنسي. تلك ستكون الشهادة الوحيدة التي أحصل عليها في حياتي. باريس في يوليو. والدي. والدتي. كانت تلعب دوراً في إعادة لمسرحيّة

(1) Rue des Petits Hôtels.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«الأبواب تصطفق»[1] على خشبة مسرح دونو. ميلين دومونجو الزائفة. حديقة مونسو حيث أقرأ المقالات عن نهاية الحرب في الجزائر. غابة بولونيا. أكتشف «رحلة في أقاصي الليل»[2]. وأشعر بالسعادة حين أمشي وحيداً في شوارع باريس. في يوم أحد من شهر آب، صوب الجنوب الشرقيّ، عند جادّة جوردان وجادة كيليرمان، في ذلك الحيّ الذي عرفته بشكل جيّد فيما بعد، علمت على واجهة بائع صحف بانتحار مارلين مونرو.

شهر أغسطس في آنسي. كلود. كانت في العشرين من عمرها في ذلك الصيف من العام 1962. كانت تعمل لدى خيّاط في ليون. ثمّ عملت عارضة أزياء «رهن الطلب». ثمّ في باريس عارضة أزياء حقيقيّة. ثمّ تزوّجت أميراً من صقلّية وانتقلت للعيش في روما حيث يتوقّف الزمن إلى الأبد. روبير. أثار فضيحة في آنسي إذ جاهر بأعلى صوته بكونه «مخنّثاً». كان منبوذاً في تلك المدينة الريفيّة. كان في السادسة والعشرين في ذلك الصيف ذاته من العام 1962.

(1) *Les Portes claquent*.

(2) *Voyage au bout de la nuit* رواية للكاتب لوي فردينان سيلين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يوحي لي بـ «ديفين» في رواية «سيّدة الأزهار»[1]. حين كان فتى شابّاً، كان روبير صديقاً للبارون البلجيكي جان ل. اثناء نزول الأخير في فندق إمبيريال بالاس في آنسي، ذلك البارون ذاته الذي عرفت والدتي مزوّده بالغلمان في أنتفيربن عام 1939. التقيت بروبير من جديد في 1973. كنّا في سيّارته مساء يوم أحد في جنيف، حين عبر جسر بيرغ، وكان ثملاً إلى حدّ أنّنا كدنا نسقط في نهر الرون. توفّي عام 1980. كان هناك آثار ضرب على وجهه وأوقفت الشرطة أحد أصدقائه. قرأت في إحدى الصحف: «الموت الحقيقيّ لشخصيّة روائيّة».

فتاة اسمها ماري. في الصيف، كانت تستقلّ مثلي الحافلة في آنسي، عند ساحة بلاس دو لا غار[2]، في الساعة السابعة مساء بعد عملها. تعود إلى فيرييه دو لاك. تعرّفت عليها في تلك الحافلة. كانت تكبرني سنّاً بفارق طفيف وبدأت العمل كطابعة على الآلة الكاتبة. خلال أيّام عطلتها، كنّا نلتقي على شاطئ فيرييه دو لاك الصغير.

(1) Divine اسم شخصيّة متشبه بالنساء في رواية سيّدة الأزهار *Notre-Dame-des-Fleurs* للروائي الفرنسي جان جينيه.

(2) ساحة المحطّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تقرأ «تاريخ إنكلترا»[1] لموروا، وروايات مصوّرة كنت أذهب لشرائها لها قبل أن أوافيها على الشاطئ.

الفتيان من عمري الذين كنّا نراهم في فندق سبورتينغ أو في مطعم «لا تافيرن»، والذين ذهبوا أدراج الرياح: جاك ل. المعروف بلقب «المركيز»، ابن عنصر في الميليشيا[2] أعدم رمياً بالرصاص في أغسطس 1944 في غران بورنان. بيار فورنييه الذي كان يحمل عصاً ذات مقبض. وكلّ الذين كانوا ينتمون إلى جيل حرب الجزائر: كلود بران، زازي، باولو إرفيو، روزي، لا يايات التي كانت عشيقة بيار براسور[3]. كانت دومينيك السمراء ذات السترة الجلديّة السوداء تعبر تحت القناطر ويقال عنها إنّها تعتاش «من مفاتنها» في جنيف... كلود بران وأصدقاؤه.

---

(1) *Histoire d'Angleterre*.

(2) «الميليشيا الفرنسيّة» منظمة سياسيّة وشبه عسكريّة شكّلتها حكومة فيشي في مطلع 1943 لمكافحة المقاومة ضدّ الاحتلال الألماني، قامت بمهامّ متمّمة للغستابو وغيرها من القوات الألمانيّة، وعرفت بممارستها العنف والتعذيب. أُعلن حلّها عند تحرير فرنسا وتعرّض عناصرها لملاحقات وتصفيات.

(3) ممثّل فرنسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شلّة من «الفيتيلوني»[1]. كان فيلمهم المفضّل «الأميركيّة الرائعة»[2]. عند العودة من حرب الجزائر، اشتروا سيّارات أم جي مستعملة. وقد اصطحبوني معهم ذات مرّة إلى مباراة ليليّة لكرة القدم. راهن أحدهم على أنّه سيتمكّن من إغواء زوجة محافظ المنطقة خلال خمسة عشر يوماً وإقناعها بمرافقته إلى فندق «غراند أوتيل» في فردان، وكسب الرهان. آخر كان عشيق امرأة ثريّة وجميلة جدّاً، أرملة أحد الأعيان، ترتاد خلال الشتاء نادي البريدج في الطابق الأوّل من الكازينو.

كنت أستقلّ الحافلة للذهاب إلى جنيف حيث يرافقني والدي أحياناً. كنّا نتناول الغداء في مطعم إيطاليّ مع شخص يدعى بيكار. بعد الظهر، كان مرتبطاً بمواعيد. غريبة كانت جنيف في بدايات الستّينيّات. كان هناك جزائريّون يتكلّمون بأصوات منخفضة في ردهة فندق

(1) فيلم *I Vitelloni* للمخرج الإيطالي فيديريكو فيليني، يروي قصة مجموعة من الفتيان العاطلين عن العمل الذين يعيشون على حساب أهلهم ويقضون وقتهم بين المقاهي وملاعب البلياردو والتسكع.

(2) *La Belle Américaine* فيلم للمخرج الفرنسي روبير ديري عُرض عام 1961 تدور وقائعه حول سيّارة أميركيّة رائعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرون. كنت أتسكّع من ناحية البلدة القديمة. كان يقال إنّ دومينيك السمراء التي كنت مغرماً بها كانت تعمل ليلاً في النادي 58، في شارع غلاسي دو ريف. في طريق العودة، كانت الحافلة تعبر الحدود عند المغيب دون أن تتوقّف عند مركز الجمارك للتفتيش.

في صيف 1962، جاءت والدتي في جولة إلى آنسي لتقديم مسرحيّة «اسمعوا جيّداً أيّها السادة»[1] لساشا غيتري في مسرح الكازينو، مع جان مارشا وميشال فلام، أشقر من صنف «الفتى الوسيم» - في سروال سباحة مرقّط كجلد النمر. كان يقدّم لنا مرطّبات في مقهى نادي السبورتينغ. نزهة في يوم أحد مع كلود عبر منتزه باكييه ومرجه المكسوّ بالعشب، عند انتهاء العطلة. الخريف من جديد. نعبر أمام مركز الإدارة حيث كانت تعمل إحدى صديقاتها. آنسي تعود مدينة ريفيّة. نصادف في منتزه باكييه أرمنيّاً عجوزاً، وحيداً على الدوام، تقول لي كلود إنّه تاجر طائل الثراء يوزّع الكثير من الأموال على الفتيات والفقراء. وسيّارة جاكي غيران الرماديّة تدور بهيكلها من تصميم أليانو

(1) *Ecoutez bien, messieurs*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حول البحيرة، ببطء، إلى الأبد. سوف أواصل كرّ سبحة تلك السنوات، بلا حنين، وإنّما بصوت مستعجل ملحاح. ما ذنبي إن كانت الكلمات تتدافع. لا بدّ من الإسراع، وإلّا لفقدت الشجاعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في سبتمبر، التحقت بثانويّة هنري الرابع في باريس، صفّ الفلسفة، كتلميذ داخليّ، في حين أنّ والديّ يقيمان على مسافة بضع مئات الأمتار من المدرسة. مضت عليّ ستّ سنوات وأنا في مدارس داخليّة. عرفت أنظمة أكثر قسوة في المدارس السابقة، لكنّني لم أمرّ بمدرسة داخليّة ممضّة مثل ثانويّة هنري الرابع. وخصوصاً ساعةَ أرى تلاميذ القسم الخارجيّ يخرجون من المدخل الرئيسيّ إلى الشارع.

لم أعد أذكر جيّداً رفاقي الداخليّين. يبدو لي أنّ ثلاثة فتيان يتحدّرون من سارّيغمين كانوا يعدّون لامتحانات المدرسة العليا للأساتذة. وغالباً ما كان مارتينيكيّ من تلاميذ صفّي ينضمّ إليهم. كان تلميذ آخر يدخّن الغليون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

باستمرار، وكان يرتدي قميصاً رمادياً وينتعل خفّين صوفيّين. وكان يُقال إنّه لم يخرج من حرم المدرسة منذ ثلاث سنوات. أذكر أيضاً بشكل مبهم جاري في المهجع، أصهب قصير القامة، لمحته بعد سنتين أو ثلاث سنوات من بعيد، على جادّة سان ميشال، يرتدي بدلة جنديّ تحت المطر... بعد إطفاء الأضواء، كان حارس ليليّ يعبر المهاجع، حاملاً بيده مصباحاً، ليتثبّت من أنّ الجميع في أسرّتهم. كان ذلك في خريف 1962، إنّما حتّى في القرن التاسع عشر، أو لربّما كذلك في حقبة أبعد في الزمن.

جاء والدي مرّة واحدة لزيارتي في تلك المدرسة. أذنَ لي مدير الثانويّة بأن أنتظره تحت سقيفة المدخل. كان ذلك المدير يحمل اسماً جميلاً: أدونيس ديلفوس. ظِلُّ والدي يرتسم هناك في المدخل المسقوف، لكنّني لا أميّز وجهه، وكأنّ وجوده وسط ذلك الديكور الشبيه بدير من القرون الوسطى بدا لي غير حقيقيّ. ظِلُّ رجل طويل القامة، بلا رأس. لم أعد أذكر إن كان هناك ردهة للزيارات. أعتقد أنّ مقابلتنا جرت في الطابق الأوّل، في صالة المكتبة، أو قاعة الأعياد. كنّا وحيدين، جالسين خلف طاولة، الواحد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مقابل الآخر. رافقته حتّى مدخل المدرسة المسقوف. ابتعد في ساحة البانتيون. أخبرني في أحد الأيّام أنّه كان هو أيضاً يتردّد على حيّ المدارس حين كان في الثامنة عشرة من العمر. كان يكاد لا يملك من النقود ما يكفي لتناول قهوة بالحليب مع بضع قطع الكرواسان بمثابة فطور في مقهى دوبون لاتان. وكان لديه في تلك الفترة غشاوة في الرئة. أُغمض عينيّ وأتصوّره يرتقي جادّة سان ميشال، بين تلاميذ الثانويّات الرصينين وطلّاب حركة العمل الفرنسي[1]. حيّه اللاتينيّ الخاصّ به كان بالأحرى حيّ فيوليت نوزيير[2]. لا بدّ أنّه صادفها أحياناً كثيرة على الجادّة. فيوليت، «التلميذة الفاتنة في ثانويّة فينلون، التي كانت تربّي خفافيش في منضدتها»[3].

(1) Action française حركة سياسيّة وطنيّة من أقصى اليمين نشطت بصورة خاصّة خلال النصف الأوّل من القرن العشرين.

(2) فتاة كانت في الثامنة عشرة حين حُكم عليها عام 1933 بالإعدام لإدانتها بقتل والدها ومحاولة قتل والدتها بالسمّ، قبل خفض عقوبتها وإطلاق سراحها عام 1945. قضيّتها كان لها وقع شديد في فرنسا لطرحها موضوعاً كان محرّماً في حينه، إذ اتّهمت والدها باغتصابها.

(3) بيت من قصيدة تحمل عنوان «فيوليت نوزيير» للشاعر أندريه بروتون الذي دافع بلا كلل مع غيره من الكتّاب السرّياليّين عن الفتاة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تزوّج والدي من ميلين دومونجو الزائفة. سكنا في الطابق الرابع، وبقيت والدتي في الثالث. كان الطابقان يشكّلان شقّة واحدة حين كان والداي يعيشان معاً. وفي 1962، لم تكن الشقّتان منفصلتين بعد. خلف باب ملغى، لا تزال هناك السلالم الداخليّة التي بناها والدي عام 1947، حين بدأ يستأجر الطابق الثالث أيضاً. لم تكن ميلين دومونجو الزائفة تودّ أن أكون تلميذاً خارجيّاً وأن أواصل مقابلة والدي. بعد شهرين في المدرسة الداخليّة، تلقّيت الرسالة التالية من والدي: «**ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي**، باريس الدائرة السادسة. صعدْتَ هذا الصباح في الساعة التاسعة والربع لتبلغني بأنّك قرّرت عدم العودة إلى الثانويّة ما لم أعدل عن قراري بإبقائك تلميذاً داخليّاً. وقرابة الساعة 12,30، أكّدت لي مجدّداً ما سبق. إنّ سلوكك لا يوصف. إن كنت تظنّ أنّك باستخدامك أساليب الابتزاز الوضيع هذه سترغمني على التنازل، فأنت واهمٌ حقّاً. أنصحك بشدّة إذاً، لأجل مصلحتك الخاصّة، أن تعود صباح غد إلى مديرك، ومعك رسالة اعتذار تبرّر غيابك بإصابتك بالإنفلونزا. ولا بدّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لي من تحذيرك بشكل قاطع وحاسم، بأنّك إن تصرّفت بخلاف ذلك، فلسوف تندم. عمرك سبعة عشر عاماً، أنت قاصر، وأنا والدك ومسؤول عن دراستك. أنوي زيارة مدير مدرستك. ألبير موديانو».

لم تكن والدتي تملك أيّ نقود في أكتوبر ذاك من العام 1962، ولم تكن لديها أيّ ارتباطات لمسرحيّة. وكان والدي يهدّدني بالتوقّف عن دفع نفقتي إن لم أعد إلى مهجع المدرسة الداخليّة. حين أفكّر في المسألة اليوم، يتراءى لي أنّني لم أكن أكلّفه الكثير: مجرّد بدل النظام الداخليّ المتواضع. لكنّني أذكر أنّني رأيته في أواخر الخمسينيّات معدماً تماماً، إلى حدّ أنّه اقترض منّي الألف فرنك قديم التي كان جدّي يقتطعها أحياناً من معاشه كعامل متقاعد، ليرسلها لي. كنت أشعر بنفسي أقرب إليه منّي إلى والديّ.

واصلت «إضرابي» عن المدرسة الداخليّة. وفي بعد ظهر أحد الأيّام، لم يعد لدينا أنا ووالدتي قرش واحد. كنّا نتنزّه في حدائق التويلري. قرّرَتْ أن تطلب مساعدة من صديقتها سوزان فلون. كانت تلك آخر حيلة بيدها. قصدنا منزل سوزان فلون مشياً، فلم يكن بحوزتنا حتّى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعض العُملة لشراء تذكرتَي مترو. استقبلتنا في شقّتها على جادّة جورج الخامس. شقّة ذات شرفات على طبقتين، يخال الواحد فيها أنّه على متن سفينة. استبقتنا للعشاء. روت لها والدتي «مآسينا» بكثير من التفجّع، منتصبة بكلّ قامتها، مشيرةً بذراعيها في حركات مسرحيّة وقاطعة لا تقبل النقاش. أنصتت سوزان فلون بمودّة، مبديةً أسفها لهذا الوضع. وأعربت عن عزمها على كتابة رسالة لوالدي. وناولت والدتي بعض المال.

في الأشهر التالية، اضطرّ والدي إلى التسليم بالأمر وتقبّل أنّ أغادر نهائيّاً المهاجع التي اعتدتها منذ سنّ الحادية عشرة. كان يحدّد لي مواعيد في المقاهي. ويجترّ مآخذه عليّ وعلى والدتي. لم أتمكّن من إرساء علاقة حميمة بيننا. وكنت مضطرّاً في كلّ مرّة إلى استجداء ورقة خمسين فرنكاً منه، كان يقبل في النهاية مرغماً ويناولني إيّاها على مضض، فأجلبها لوالدتي. في بعض الأيّام، كنت أعود خالي الوفاض، فتصاب بنوبات غضب. لم يدم الأمر طويلاً -في قرابة الثامنة عشرة من عمري وخلال السنوات التالية-، حتّى صرت أجهد لأجد لها بوسائلي الخاصة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أوراق الخمسين فرنكاً البائسة تلك التي تحمل صورة جان راسين، لكن من غير أن أنجح في تبديد العدائيّة التي لطالما أظهرتها حيالي، وقلّة عطفها عليّ. لم أتمكّن يوماً من البوح لها بما يخالجني، ولا من طلب أدنى مساعدة منها. أحياناً، مثل كلب بلا سلالة بقي متروكاً لحاله أكثر ممّا ينبغي، تتملّكني رغبة طفوليّة في أن أدوّن بشكل واضح ومفصّل كلّ ما عانيته جرّاء قسوتها وطيشها. ألزم الصمت. وأغفر لها. كلّ ذلك بات الآن بعيداً جدّاً... أذكر أنّني نسخت في الثانويّة جملة ليون بلوا: «في قلب البشر المسكين زوايا غير موجودة بعد، يدخل الألم إليها حتّى تكون». لكنّ الألم في حالتي كان بلا جدوى، من الصنف الذي لا يمكن حتّى استخلاص قصيدة منه.

كان يفترض بالبؤس أن يقرّب بيننا. في إحدى السنوات – 1963 –، توجب «وصل» الغاز بالشقّة. كان لا بدّ من إجراء أشغال. لم تكن والدتي تملك المال لدفع ثمنها. ولا أنا كذلك. كنّا نعدّ الطعام على موقد كحوليّ صغير. ولم نكن نشعل التدفئة إطلاقاً في الشتاء. هذا العوز سيلاحقنا لفترة طويلة. في ما بعد ظهيرة أحد أيّام يناير 1970، كنّا في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حالة من اليأس، إلى حدّ أنّها جرّتني إلى مكتب الإقراض برهنٍ في شارع بيار شارون، حيث أودعْتُ قلم حبر «من الذهب بريشة من الماس» كان موريس شوفالييه سلّمه لي بمناسبة تقديم جائزة أدبيّة. لم أحصل لقاءه سوى على مئتي فرنك قبضت والدتي عليها بنظرة قاسية.

لاحقنا طوال تلك السنوات «غمّ الاستحقاق». لم يكن بدل إيجار تلك الشقق القديمة المتداعية منذ ما قبل الحرب بالمبلغ الكبير في ذلك الحين. ثمّ راحت الإيجارات تزداد اعتباراً من العام 1966، مع تبدّل الحيّ ومتاجره وسكّانه. لا تلوموني على الخوض في مثل هذه التفاصيل، فهي تسبّبت لي ببعض الهموم التي تبدّدت سريعاً، لأنّني كنت أؤمن بالمعجزات وأتيه في أحلام بالثروة تليق بروايات بالزاك.

بعد مواعيدي الكئيبة مع والدي، لم نكن مرّة نعود وندخل معاً إلى المبنى. كان يدخل قبلي، فيما يترتّب عليّ الانتظار لبعض الوقت بناءً على تعليماته، فألتفّ حول الحيّ. كان يخفي لقاءاتنا عن ميلين دومونجو الزائفة. كنت أقابله وحيداً عادةً. في إحدى المرّات، تناولنا الغداء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مع المركيز فيليب دو د.، فانقسمت الوجبة بين مطعمين، أحدهما على رصيف اللوفر والآخر على رصيف غران أوغوستان. شرح لي والدي أنّ من عادة فيليب دو د. أن يتناول الغداء في عدّة مطاعم في آن، يعطي مواعيد فيها لأشخاص مختلفين... فيتناول مقبّلات في واحد، وطبقاً في آخر، ثمّ يبدّل المطعم من جديد لتناول الحلوى.

يوم تبعنا فيليب دو د. من رصيف اللوفر إلى رصيف غران أوغوستان، كان يرتدي ما يشبه سترة عسكريّة. يدّعي أنّه كان خلال الحرب عنصراً في سرب النورماندي نيمان[1]. غالباً ما كان والدي يذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عند د. في قصره، في مقاطعة اللوار الأطلسيّة. حتّى أنّه كان يشارك هناك في رحلات لصيد البطّ، رغم أنّ ذلك لم يكن تماماً ضمن مهاراته. أذكر الأيّام القليلة التي قضيناها عام 1959 في سولونيا، عند بول بيرتول، زوجته والكونت دو ناليش، إذ كنت أخشى أن يتخلّى والدي عنّي وأن يجرّني هؤلاء القتلة معهم إلى حملات صيدهم بالأحصنة والكلاب. وبما أنّه كان مرتبطاً «بأعمال» مع

(1) فوج قتاليّ تابع لسلاح الجوّ الفرنسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بول بيرتول، فكان مرتبطاً «بأعمال» أيضاً مع فيليب دو د. كان د. في شبابه، على حدّ قول والدي، ابن عائلة ضالّاً، حتّى أنّه دخل السجن مرّة. وقد أراني لاحقاً صورة قصّها من مجلّة «ديتيكتيف»[1] يمكن رؤيته فيها مكبّل اليدين بالأصفاد. لكنّ د. كان ورث للتوّ في ذلك الحين تركة طائلة من جدّته (ولدت لعائلة دو ف.)، وافترض أنّ والدي كان بحاجة له مموِّلاً. فكان لديه حلم يراوده منذ نهاية الخمسينيّات، وهو أن يعيد شراء أسهم عقار في كولومبيا. وكان يعوّل بالتأكيد على فيليب دو د. ليساعده على تحقيق هذا المشروع.

تزوّج د. بطلة في سباق السيّارات، وأنهى حياته مفلساً تماماً، مديراً لحانة ليليّة في الحمّامات بتونس أوّلاً، ثمّ مدير كاراج في بوردو. أمّا والدي، فبقي لبضع سنوات متمسّكاً بحلمه الكولومبيّ. في العام 1976، نقل لي أحد أصدقائي بطاقة عليها البيانات التالية: «موكوبيا، شركة مالية. مقرّ الشركة: باريس (الدائرة التاسعة) 22 شارع بيرجير. رقم الهاتف: 94,76,770. شركة مساهمة فرنسيّة. الرئيس

(1) *Détective* مجلة فرنسيّة متخصّصة في التحقيقات والجرائم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والمدراء: رئيس مجلس الأدارة: السيّد ألبير رودولف موديانو. المدراء: السيّدان شارل روشفي، ليون ميشيل تيسّون وشركة كافير تراست (السيّد راوول ميلنوت)».

تمكّنت من التعرّف إلى أعضاء مجلس الإدارة ذاك: الأوّل، تيسّون، حين تلقّيت بالخطأ بدل والدي في سبتمبر 1972 هذه البرقيّة من طنجة: «1194 طنجة 34601 عاجل تسديد إيجار بيرجير - سكرتيرتي مريضة - الردّ سريعاً تيسّون». تيسّون ذاك كان متموّلاً في طنجة. أمّا ميلنوت من شركة كافير تراست، فكان في الماضي أحد أعضاء المديريّة الدوليّة لمنطقة التجارة الحرّة.

وبصحبة والدي خلال فترة 1963-1964 تلك، التقيت برجل ثالث من مجلس الإدارة: شارل روشفي. كان والدي يستشهد بفشل شارل روشفي ذاك ليحذّرني من مغبّة الإمعان أكثر ممّا ينبغي في دروس «أدبيّة». كان روشفي زميلاً لروجيه فايّان[1] وروبير برازياك[2] في الصفوف الإعداديّة الأدبيّة في معهد لوي لو غران، ولم ينجز شيئاً

(1) كاتب وصحافيّ ومسرحيّ فرنسي.

(2) كاتب وصحافيّ فرنسيّ عرف بالتزامه السياسي إلى جانب الحركة الفاشيّة. حوكم وأعدم عام 1945.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مجدياً في حياته. مظهره يوحي بسويسريّ متهتّك يهوى البيرة، كاهن باللباس المدنيّ، ذي نظّارتين معدنيّتي الإطار وشفتين متراخيتين، يرتاد سرّاً الحمّامات العامّة في جنيف بحثاً عن مغامرات مع مثليّين. وهو خمسينيّ مطلّق يعيش مع امرأة تصغره سنّاً، مكتنزة، شعرها قصير، في غرفة منعدمة النوافذ بطابق أرضيّ، في الدائرة السادسة عشرة من باريس. يحدس الواحد لديه استعداداً للقيام بأيّ عمل دنيء. لا بدّ أنّه كان يقوم مقام منفّذ مهامّ لوالدي، وشريك الأعمال المشبوهة، غير أنّ ذلك لم يكن يمنعه من تلقيني دروساً في الأخلاق بصوت دجّال يدّعي الحكمة. عدت وصادفته عام 1976 على أدراج رصيف كونتي، مترهّلاً تحت وطأة السنين، أشبه بمتسكّع مشرّد، وجهه متورّم، ويحمل كيس تبضّع يتدلّى من ذراعه كمن يسير في نومه. اكتشفت أنّه يسكن شقّة الطابق الرابع التي كان والدي غادرها للتوّ متوجّهاً إلى سويسرا، والتي كانت خالية من أيّ قطعة أثاث، وقد قُطعت عنها التدفئة والماء والكهرباء. كان متسلّلاً إليها، يعيش فيها كما تيسّر مع زوجته. كانت ترسله للتسوّق -بضع علب طعام محفوظ على الأرجح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحوّلت إلى امرأة شكسة سليطة اللسان. أسمع زعيقها كلّما عاد المسكين إلى الشقّة. أفترض أنّه لم يعد يعوّل على دخله كعضو في مجلس إدارة موكوبيا. تلقّيت بالخطأ عام 1976 تقريراً لهذه الشركة الماليّة، جاء فيه أنّه «تمّ إعطاء تعليمات إلى محامي شركتنا في بوغوتا من أجل الشروع في دعوى طلب تعويضات أمام القضاء الكولومبيّ. نعلمكم على سبيل البيان أنّ السيّد ألبير موديانو، رئيس مجلس إدارتكم، هو عضو في مجلس إدارة شركة ساوث أميريكان تيمبر ويمثّل شركتنا في هذا الفرع». بيد أنّ الحياة قاسية وظالمة، تبدّد أجمل الأحلام: رئيس مجلس الإدارة لن يتقاضى أيّ تعويضات من بوغوتا.

عيد الميلاد 1962. لم أعد أدري إن كان هناك ثلج فعلاً في عيد الميلاد ذاك. في مطلق الأحوال، أراه في ذكرياتي يتساقط في الليل نُدَفاً ضخمة فوق الطريق والحظائر. كان هنري ب. وجوزيه يستضيفانني في مربض الخيول في سان لو. جوزيه، الفتاة التي كانت تعتني بي بين الحادية عشرة والرابعة عشرة من عمري في غياب والدتي. زوجها هنري كان بيطريّ المربض. كانا ملاذي الوحيد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في السنوات التالية، عدت مراراً عندهما في سان لو. هذه المدينة التي كانت تلقّب بـ «عاصمة الأنقاض» دُمّرت تحت قنابل عمليّة الإنزال[1]، وفقد العديد من الناجين أيّ أثر لهويّتهم أو دليل عليها. توجّب إعادة إعمار سان لو، واستمرّت العمليّة حتّى الخمسينيّات. كان لا يزال هناك قرب المربض منطقة من الأكواخ المؤقّتة. خلال تلك الزيارات، كنت أذهب إلى مقهى «البالكون» والمكتبة العامّة. وكان هنري يصطحبني إلى مزارع الجوار حيث يعتني بالحيوانات، حتّى خلال الليل حين يستدعونه. في الليل، حين كنت أفكّر بكلّ تلك الأحصنة التي تحرس الجوار حولي أو الراقدة في حظائرها، كان يغمرني شعور بالارتياح لعدم اقتيادها إلى المسلخ، مثل صفّ الأحصنة التي رأيتها ذات صباح عند بوّابة برانسيون.

صادقت بعض الفتيات في سان لو. كانت إحداهنّ تقيم في المحطّة الكهربائيّة. وأخرى، في سنّ الثامنة عشرة، تريد الانتقال إلى باريس والدخول إلى الكونسرفاتوار.

(1) إنزال الحلفاء قوّاتهم في النورماندي في 6 يونيو 1944 لتحرير فرنسا من الاحتلال النازيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تعرض لي مشاريعها في مقهى قرب محطّة القطارات. كانت المدن الريفيّة من مثيلات آنسي وسان لو لا تزال تعيش حينها في الزمن الذي كانت كلّ الأحلام وكلّ النزهات الليليّة تفضي فيه إلى المحطّة التي ينطلق منها القطار إلى باريس.

قرأت «الأوهام الضائعة»[1] في عيد الميلاد ذاك. كنت لا أزال أشغل الغرفة ذاتها في الطابق الأخير من المنزل. شبّاكها يطلّ على الطريق. أذكر أنّه في كلّ يوم أحد عند منتصف الليل، كان جزائريّ يعبر الطريق صعوداً نحو مجمّع الأكواخ، وهو يخاطب نفسه بهدوء. وهذا المساء، بعد مضيّ أربعين عاماً، توحي لي سان لو بالشبّاك المضاء في «الستارة القرمزيّة»[2] – لكأنّني نسيت أن أطفئ الضوء في غرفتي القديمة أو في شبابي. باربيه دورفيّي ولد في الجوار. زرت منزله.

(1) *Illusions perdues* رواية للكاتب الفرنسي أونوريه دو بالزاك.

(2) *Le Rideau cramoisi* أولى قصص مجموعة *Les Diaboliques* للكاتب والشاعر الفرنسي جول باربيه دورفيّي (1808–1889).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

1963. 1964. السنوات تختلط. أيّام بطيئة، أيّام ماطرة... غير أنّني كنت أدخل أحياناً حالة من الخدر أفلت فيها من تلك الكآبة، مزيج من السكْر والنعاس، كما حين نمشي في الشوارع في الربيع، بعد ليلة بلا نوم.

1964. التقيت بفتاة تدعى كاترين في مقهى على جادّة لا غار، تشبه آرليتّي[1] برقّتها ولكنتها الباريسيّة. أذكر ربيع ذلك العام. أغصان أشجار الكستناء على طول خطّ المترو الجوّي. جادّة لا غار حيث لم يكونوا بعد هدموا المنازل الخفيضة.

كانت والدتي تلعب في مسرح لامبيغو دوراً صغيراً في مسرحيّة لفرنسوا بيّيدو: «كيف حال العالم سيّدي؟ إنّه

(1) ممثّلة فرنسيّة شهيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدور سيّدي»[1]... كانت أورسولا كوبلر، زوجة بوريس فيان[2]، من فريق الممثّلين أيضاً. كانت تقود سيّارة مورغان حمراء. ذهبْتُ في بعض الأحيان إلى منزلها وصديقها هوت ديديه، في حيّ فيرون. روت لي كيف كانت ترقص رقصة الدبّ مع بوريس فيان. تأثّرت لرؤية مجموعة بوريس فيان الضخمة من الأسطوانات.

لجأت في يوليو إلى سان لو. ما بعد ظهائر فارغة. كنت أتردّد إلى المكتبة العامّة والتقيت بامرأة شقراء. كانت تقضي العطلة في فيلّا على مرتفعات تروفيل، مع أطفال وكلاب. كانت تلميذة داخليّة في الرابعة عشرة من عمرها، أثناء الاحتلال، في دار التربية الخاصة بعائلات حائزي وسام جوقة الشرف في سان دوني. تلميذة المدارس الداخليّة القديمة. كتبت لي والدتي: «إن كنت مرتاحاً هناك، فمن الأنسب أن تبقى لأطول وقت ممكن. أنا لا أنفق شيئاً، وهكذا سيكون بوسعي إرسال ما تبقّى من الأموال التي

---

(1) *Comment va le monde, môssieu? Il tourne môssieu*.

(2) Boris Vian (1920–1959) كاتب ومؤلّف موسيقيّ وعازف جاز، من أبرز وجوه فرنسا في فترة ما بعد الحرب، ترك ميسمه الفريد في الحياة الثقافيّة والفنيّة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أدين بها لغاليري لافاييت».

رسالة جديدة من والدتي في سبتمبر في سان لو: «لا أعتقد أنّنا سنحظى بالتدفئة هذا الشتاء، لكنّنا سنتدبّر أمرنا. أطلب منك إذاً بنيّ أن ترسل لي كلّ ما تبقّى لديك من مال». كنت في تلك الفترة أكسب عيشي نوعاً ما من خلال بيع بعض الكتب. وفي رسالة أخرى، قليل من الأمل: «الشتاء الآتي سيكون بالتأكيد أقلّ قسوة من الذي عرفناه...».

تلقّيت اتّصالاً هاتفيّاً من والدي. سجّلني من غير أن يسألني رأيي في القسم التحضيريّ للدراسات الأدبيّة العليا في ثانويّة ميشال مونتاني في بوردو. ادّعى أنّ لديه صلاحية «الإشراف على دراستي». حدّد لي موعداً لليوم التالي في مقهى محطّة كون للقطارات. صعدنا في أوّل قطار إلى باريس. في محطّة سان لازار، كانت ميلين دومونجو الزائفة في انتظارنا وقادت بنا السيّارة إلى محطّة اوسترليتز. أدركْتُ أنّها هي التي فرضت إقصائي بعيداً عن باريس. طلب منّي والدي أن أقدّم لميلين دومونجو الزائفة بمثابة عربون مصالحة خاتماً من الجَمَشْت كانت صديقتي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«تلميذة المدارس الداخليّة القديمة» قدّمته لي ذكرى منها. رفضت تقديم ذلك الخاتم.

في محطّة أوسترليتز، صعدنا أنا ووالدي في القطار المتوجّه إلى بوردو. لم أكن أحمل أيّ أمتعة، وكأنّها عمليّة خطف. قبلت بالرحيل معه على أمل أن أتمكّن من مجادلته بالمنطق: كانت هذه أوّل مرّة منذ سنتين نقضي فيها معاً وقتاً أطول من تلك اللقاءات على عجلٍ في المقاهي.

وصلنا إلى بوردو في المساء. استأجر والدي غرفة لكلينا في فندق سبلانديد. في الأيّام التالية، قمنا بجولة على متاجر شارع سانت كاترين لشراء مستلزماتي للمدرسة الداخليّة، التي سلّم مدير ثانوية ميشال مونتاني لائحة بها إلى والدي. حاولت إقناعه بأنّ كلّ ذلك غير مجدٍ، غير أنّه ظلّ متشبّثاً بقراره.

ذات مساء، أمام مسرح «غران تياتر» في بوردو، انطلقت مهرولاً للإفلات منه. ثمّ أشفقت عليه. حاولت مجدّداً إقناعه بالمنطق. لماذا يسعى على الدوام للتخلّص منّي؟ أليس من الأسهل أن أبقى في باريس؟ لم أعد في سنّ تسمح بسجني في مدارس داخليّة... لم يشأ الأخذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بأيّ من حججي. تظاهرت عندها بالإذعان. وكما في الماضي، ذهبنا إلى السينما... في مساء يوم الأحد المحدّد لبدء العام الدراسي، رافقني في سيّارة أجرة إلى ثانويّة ميشال مونتاني. ناولني مائة وخمسين فرنكاً وجعلني أوقّع إيصالاً. لماذا؟ انتظر في سيّارة الأجرة حتّى عبرت تحت سقيفة مدخل المدرسة. صعدت إلى المهجع حاملاً حقيبتي. نعتني طلّاب داخليّون بـ «المبتدئ»[1] وأرغموني على قراءة نصّ يونانيّ. فقرّرت الهروب. خرجت من الليسيه حاملاً حقيبتي وذهبت لتناول العشاء في مطعم دوبيرن على ممرّات تورني، حيث كان والدي اصطحبني في الأيّام السابقة. ثمّ صعدت في سيّارة أجرة إلى محطّة سان جان. ثمّ في قطار ليليّ إلى باريس. لم يبق لي شيء من المائة والخمسين فرنكاً. شعرت بالأسف لعدم تعرّفي أكثر إلى بوردو، مدينة «دروب البحر»[2]. ولأنّه لم يتسنّ لي

(1) إشارة إلى الـ Bizutage وهو شعيرة دارجة في بعض المدارس والجامعات حيث يتمّ إخضاع طلّاب السنة الأولى إلى ما يشبه «امتحانات» قبل دمجهم في المجموعة، وتصل أحياناً إلى حدّ المضايقة والإذلال.

(2) *Les Chemins de la mer* رواية للكاتب فرنسوا مورياك تجري وقائعها في بوردو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنشّق رائحة الصنوبر وصمغ الأشجار. في اليوم التالي في باريس، التقيت بوالدي في أدراج المبنى. دهش لظهوري من جديد. مرّ وقت طويل بعد ذلك من غير أن يكلّم أحدنا الآخر.

وانقضت الأيّام، والأشهر. والفصول. أودّ أحياناً لو أعود في الزمن وأعيش من جديد كلّ تلك السنوات أفضل ممّا عشتها. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

أسير الآن في شارع شامبيونّيه، في تلك الساعة من بعد الظهر حين تسكب الشمس أشعّتها مباشرة في العينين. أقضي أيّامي في حيّ مونمارتر، في حالة أقرب إلى أحلام اليقظة. كنت أرتاح هناك أكثر من أيّ مكان آخر. محطّة لامارك كولانكور للمترو، مع المصعد ومطعم «سان كريستوبال» في منتصف منحدر الأدراج. مقهى فندق تيراس. لحظات عابرة من السعادة. موعد في الساعة السابعة مساء في مطعم «أو ريف». الدرابزون المثلّج في شارع بيرت. وأنفاسي، لاهثة دوماً.

الخميس 8 أبريل 1965، بحسب مفكّرة قديمة، لم نعد أنا ووالدتي نملك قرشاً واحداً. فرضت عليّ أن أدقّ باب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والدي لأطالبه بنقود. صعدتُ الأدراج، مرغَماً يائساً. كنت أنوي عدم رنّ الجرس، لكنّ والدتي كانت تترصّدني متوعّدةً على بسطة الدرج، والترقّب على وجهها، والفاجعة في عينيها، والغضب يغلي في عروقها. رننت الجرس. صفق والدي الباب في وجهي. رننت من جديد. فزعقت ميلين دومونجو الزائفة أنّها سوف تتّصل بشرطة النجدة. نزلْتُ إلى الطابق الثالث من جديد. حضر الشرطيّون لاقتيادي. كان والدي يرافقهم. جعلونا نصعد سويّةً في حافلة نقل الموقوفين، أمام أنظار الناطور المندهش. جلسنا على مقعد الحافلة، جنباً إلى جنب. لم يكلّمني. كانت هذه أوّل مرّة أصعد في حافلة لنقل الموقوفين، وشاء القدر أن أكون فيها مع والدي. هو عاش هذه التجربة من قبل في فبراير 1942 وخلال شتاء 1943، حين أوقفه مفتّشو الشرطة الفرنسيّة للشؤون اليهوديّة ضمن حملة اعتقالات.

سلكت حافلة الموقوفين شارع سان بير، ثمّ جادّة سان جرمان. توقّفت عند الإشارة الحمراء، أمام مقهى «لي دو ماغو». وجّه لي والدي اتّهامات أمام مفوّض الشرطة. قال إنّني «أزعر» وإنّني أقصد منزله «لإثارة متاعب». أعلن لي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مفوّض الشرطة أنّه «في المرّة المقبلة» سوف يحتجزني هناك. أحسست بجلاء بأنّ والدي سيرتاح إن هو تمكّن من التخلّي عنّي وتركي في مركز الشرطة ذاك إلى الأبد. عدنا معاً إلى رصيف كونتي. سألته لماذا سمح لميلين دومونجو الزائفة بأن تستدعي شرطة النجدة، ولماذا اتّهمني أمام مفوّض الشرطة. بقي صامتاً.

في ذلك العام 1965 ذاته – أو 1964–، هدم والدي السلالم الداخليّة التي كانت تصل بين الطابقين، وباتت الشقّتان مفصولتين نهائيّاً. حين فتحت الباب ودخلت إلى الحجرة الصغيرة المكسوّة بالأنقاض، وجدت بعض كتب طفولتنا وبطاقات بريديّة موجّهة إلى شقيقي، كانت بقيت في الطابق الرابع، ممزّقة إرباً ومبعثرة بين الحطام. مايو ويونيو. مونمارتر، على الدوام. الطقس جميل. جالساً على رصيف مقهى في شارع ليزابيس، في الربيع.

يوليو. في قطار ليليّ، واقفاً في الممرّ. فيينّا. قضيت بضع ليالٍ في فندق رديء قرب محطّة غار دو لويست. ثمّ وجدت ملاذاً في غرفة، خلف كنيسة سان شارل. كنت ألاقي أشخاصاً من كلّ الأصناف في مقهى هافيلكا. هناك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

احتفلت معهم ذات مساء ببلوغي العشرين.

نتشمّس في حدائق بوتزلاينسدورف، وكذلك في تخشيبة صغيرة في وسط بستان للعامّة من ناحية هايليغنشتات. في مقهى رابي، قاعة كئيبة قرب شارع غرابن، لم يكن هناك أحد وكانت تنبعث أغنيات لبياف. وعلى الدوام ذلك الإحساس الطفيف بالسكر الممزوج بالنعاس في الشوارع الصيفيّة، كأنّما بعد ليلة بلا نوم.

نذهب أحياناً حتّى الحدود التشيكيّة والمجريّة. حقل شاسع. أبراج مراقبة. إن خطَونا في الحقل، أطلقوا النار علينا.

غادرتُ فيينا في مطلع سبتمبر. **قلْ بعذوبة عند الفراق «وداعاً»**، كما تقول الأغنية. ثمّة جملة لكاتبنا جوزف روث[1] توحي لي بفييّنا التي لم أعد إليها منذ أربعين عاماً. هل أراها من جديد يوماً؟ «تلك المساءات الخاطفة، الجفلى، كان يتحتّم الإسراع وتلقّفها قبل أن تزول، وأكثر ما كنت أحبّه هو مباغتتها في الحدائق العامّة، في

(1) Joseph Roth كاتب وصحافي نمساوي (1894–1939) خرج إلى المنفى في فرنسا مع وصول النازيّين الى السلطة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فولكسغارتن، في براتر، التقاط آخر وهج من نورها الأكثر رقّة، داخل مقهى حيث كان لا يزال ينسلّ، رهيفاً خفيفاً، مثل عطر..».

في القطار الليليّ في مقصورة من الدرجة الثانية في محطّة غار دو لويست، من فييّنا إلى جنيف. وصلت إلى جنيف عند العصر. صعدت في الحافلة إلى آنسي. في آنسي، ليل ومطر غزير. كنت مفلساً تماماً. نزلت في فندق إنكلترا، من غير أن أدري كيف سأدفع بدل الغرفة. تغيّرت عليّ آنسي ولم أعد أعرفها، كانت في تلك الليلة مدينة أشباح تحت المطر. هدموا الفندق القديم والمباني المتداعية في ساحة لا غار. في اليوم التالي، التقيت ببعض الأصدقاء. كان العديدون منهم غادروا في خدمة العلم. بدا لي في المساء أنّني لمحتهم يعبرون تحت المطر ببدلاتهم العسكريّة. كان لا يزال معي رغم كلّ شيء خمسون فرنكاً. لكنّ بدل الغرفة في فندق إنكلترا مكلف. زرت خلال تلك الأيّام القليلة أستاذي السابق في مادّة الأدب، الأب أكامبريه، في مدرسة سان جوزيف في تون. كنت راسلته من فيينا لأسأله إن كان من الممكن أن يعهدوا إليّ بوظيفة ناظر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أو أستاذ مساعد للسنة التالية. أعتقد أنّني كنت أسعى للهروب من باريس ومن والديّ المسكينين اللذين لم يقدّما لي أيّ دعم معنويّ وتركاني في مأزق لا مخرج منه. عثرت من جديد على رسالتين من الأب أكامبريه. «أتمنّى أن يبدأ هذا العام الدراسيّ بحضورك كأستاذ في المدرسة. كلّمت الأب الرئيس في الأمر. هيئة الأساتذة مكتملة، لكن من الممكن أن يحصل تغيير قبل نهاية شهر آب، وهو ما أتمنّاه حتّى يصبح في مقدورك الانضمام إلينا». وفي الرسالة الثانية بتاريخ 7 سبتمبر 1965، كتب لي: «إنّ جدول الصفوف الذي عملت على وضعه في الأيّام الأخيرة يُظهر بوضوح للأسف أنّ عدد الأساتذة أكثر من كافٍ للعام الدراسي 1965–1966. من المستحيل منحك وظيفة، حتى بنصف دوام..».

لكنّ الحياة كانت تستمرّ من غير أن ندري بوضوح لماذا وُجدنا في ذاك الوقت تحديداً مع أشخاص محدّدين دون سواهم، في ذاك الموقع وليس في أيّ مكان آخر، وإن كان الفيلم نسخة أصليّة أم نسخة مدبلجة. لم يبق منه اليوم في ذاكرتي سوى مشاهد وجيزة. تسجّلت في كليّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآداب لتمديد تأجيلي الخدمة العسكريّة. لم أحضر أيّاً من الصفوف وكنت تلميذاً وهميّاً. كان جان نورمان (المعروف باسم جان دوفال) يشغل منذ بضعة أشهر على رصيف كونتي الغرفة الصغيرة حيث كانت في السابق السلالم الداخليّة بين الطابقين الثالث والرابع. كان يعمل في وكالة عقاريّة، غير أنّه كان محظوراً عليه الدخول إلى باريس. هذا ما علمت به لاحقاً. تعرّفَت والدتي عليه قرابة العام 1955. كان نورمان في السابعة والعشرين، وكان خارجاً من السجن أودع فيه لقضايا سطو. شاءت الصدف أن يكون نفّذ بعض عمليّات السطو تلك في سنّ مبكّرة جدّاً مع سوزان بوكورو التي كنّا نسكن أنا وشقيقي عندها في جوي أون جوزاس. عاد بعد ذلك ودخل السجن، إذ كان لا يزال عام 1959 في سجن بواسي المركزيّ. أجرى بعض الأشغال الضروريّة في الشقّة المتداعية، وكنت واثقاً من أنّه كان يمدّ والدتي بالمال. أُحبُّه كثيراً، نورمان ذاك (المعروف باسم دوفال). لقد ترك بتكتّم ذات مساء فوق موقد غرفتي ورقة مائة فرنك، عثرت عليها بعد مغادرته. كان يتنقّل في سيّارة جاغوار، وعلمت من الصحف في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العام التالي عند اندلاع قضيّة بن بركة[1] أنّه يُعرف بلقب «الطويل القامة صاحب الجاغوار».

حادثة، قرابة 1965–1966: كانت الساعة العاشرة مساء، وكنت وحيداً في الشقّة. سمعت وقع خطى صاخبة في الطابق العلويّ، عند والدي، وضجيج أثاث يُقلب أرضاً وزجاج يتحطّم. ثمّ سكون. فتحت الباب المؤدّي إلى الأدراج. رأيت رجلين جسيمين، يظهر من سحنتهما أنّهما قاتلان مأجوران أو شرطيّان باللباس المدنيّ، ينزلان السلالم مسرعَين، قادمَين من الطابق الرابع. سألتهما عمّا يجري. أشار أحدهما لي بيده ناهياً وقال بجفاء: «عد إلى شقّتك إن سمحت». سمعت وقع خطى عند والدي. كان هناك إذاً... تردّدت في الاتّصال به، لكنّنا لم نكن تقابلنا منذ رحلتنا إلى بوردو، وكنت واثقاً من أنّه سوف يقفل الخطّ. طلبت منه بعد سنتين أن يخبرني بما جرى في تلك الليلة. تظاهر بأنّه لا يفهم عمّا أتكلّم. أعتقد أنّه كان

(1) السياسي المغربي المهدي بن بركة، كان من أبرز المعارضين للملك الحسن الثاني، خُطف في 29 أكتوبر 1965 في باريس، ولم يُعثر فيما بعد على جثّته. وقد عاد موديانو إلى تصوير أجواء خطفه في روايته «عشب الليالي» *L'herbe des nuits* (2012).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رجلاً من الصنف الذي يمكن أن يحبط عزيمة عشرة قضاة تحقيق.

في ذلك الخريف من العام 1965، كنت أرتاد مطعماً قريباً من مسرح لوتيسيا، حين يكون لديّ بضع أوراق مالية من فئة خمسة فرنكات التي تحمل صورة فيكتور هوغو. وكنت أبيت في غرفة على جادّة فيليكس فور، في الدائرة الخامسة عشرة، حيث كان أحد أصدقائي يودع مجموعة من أعداد «باري تورف»[1] من السنوات العشر الأخيرة، يستخدمها لإجراء حسابات إحصائيّة غامضة يراهن على أساسها على سباقات الخيل في ميداني أوتوي ولونشان. سرابات. أذكر أنّني كنت أجد رغم كلّ شيء فسحة من الأفق في حيّ غرونيل ذاك، تتراءى لي فوق الأزقّة الضيّقة التي تجري مستقيمة وكأنّها مخطوطة بالمسطرة، وتنفرّج عند طرفها على نهر السين. أحياناً كنت أستقلّ سيّارة أجرة في وقت متأخّر من الليل. كانت التوصيلة تكلّف خمسة فرنكات. غالباً ما كانت الشرطة تقوم بدوريّات عند أطراف الدائرة الخامسة، للكشف على الهويّات. زوّرت

(1) *Paris Turf* صحيفة فرنسيّة متخصّصة في سباقات الخيل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تاريخ ولادتي على جواز سفري لأبدو بالغاً، فحوّلت 1945 إلى 1943.

كان ريمون كونو[1] يتلطّف ويستقبلني يوم السبت. أحياناً كثيرة، كنّا نأتي معاً بعيد الظهر من نويّي إلى الضفّة اليسرى. كان يكلّمني عن نزهة قام بها مع بوريس فيان حتّى طريق مسدود يكاد لا يعرفه أحد، في عمق الدائرة الثالثة عشرة، بين رصيف لا غار وسكّة أوسترليتز: طريق لا كروا جاري. كان ينصحني بالذهاب إلى هناك. قرأت أنّ أسعد لحظات عرفها كونو كانت أثناء تسكّعه بعد الظهر، لأنّه كان يترتّب عليه كتابة مقالات عن باريس لصحيفة «لاترانزيجان»[2]. أتساءل إن كانت تلك السنوات الميتة التي أسترجعها هنا تستحقّ العناء. مثل كونو، لم أكن حقّاً نفسي إلّا حين أهيم وحيداً في الشوارع، بحثاً عن كلاب آنيير[3]. كان لديّ كلبان في ذلك الحين.

(1) Raymond Queneau (1903–1976) روائي وشاعر فرنسيّ مزج بين المنطق الرياضيّ والإبداع الأدبي في أعمال فريدة اتّسمت بالطرافة والعمق والاتّقاد الذهنيّ. وهو أوّل من نشر كتابات موديانو إذ كان مسؤولاً أدبيّاً في منشورات غاليمار.

(2) *L'Intransigeant*.

(3) *Les Chiens d'Asnières* قصيدة لريمون كونو يعدّد فيها كلّ ما فقده =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانا يدعيان جاك وبول. في 1952، في جوي أون جوزاس، كان لدينا أنا وشقيقي كلبة تدعى بيغي، دهسَتها سيّارة بعد ظهر يوم، في شارع الدكتور كورزين. كونو كان مولعاً بالكلاب.

كلّمني عن فيلم من أفلام الغرب الأميركي، تجري فيه معركة شرسة بين هنود وباسكيّين. وجود الباسكيّين أدهشه كثيراً وأضحكه. اكتشفت في نهاية المطاف اسم الفيلم: «قافلة نحو الشمس»[1]. ملخّص حبكة الفيلم يذكر بشكل واضح: الهنود ضدّ الباسكيّين. بودّي أن أشاهد ذلك الفيلم تكريماً لذكرى كونو، في دار سينما غفلوا عن هدمها، في قعر حيّ منسيّ. ضحكة كونو. ما بين انبجاس نافورة وأزيز خُشُيخِشَة. لكنّني لست موهوباً في ابتكار الاستعارات. كانت بكلّ بساطة ضحكة كونو.

1966. ليلة من ليالي يناير، على رصيف كونتي. عاد جان نورمان حوالى الحادية عشرة ليلاً. إنّني وحيد معه في

= على مرّ الأيّام، والعنوان مستوحى من مدفن للكلاب أقيم عام 1899 في منطقة آنيير على أطراف باريس، وكان الأوّل من نوعه.

(1) *Caravane vers le soleil* فيلم أميركيّ لراسل راوس واسمه الأصليّ *Thunder in the Sun*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشقّة. المذياع مشتعل. أُعلِن خبر انتحار فيغون[1] في شقّة صغيرة في شارع رونود، في حين كان الشرطيّون يخلعون باب غرفته. كان أحد الأطراف في قضيّة بن بركة. امتقع وجه نورمان وأجرى اتصالاً هاتفيّا مؤنِّباً أحداً ما، زاعقاً به. أقفل الخطّ على وجه السرعة. شرح لي أنّه تناول العشاء مع فيغون قبل نحو ساعة، وأنّ فيغون صديق قديم له، منذ مدرسة سانت بارب. لم يقل لي إنّه اعتقل معه في الخمسينيّات في سجن بواسي المركزي، وهو ما علمته لاحقاً.

ثمّ تتعاقب أحداث طفيفة، تمرّ من غير أن تترك فينا أثراً كبيراً. يخيّل لنا أنّه لا يسعنا الاستمرار في عيش حياتنا الحقيقيّة، أنّنا ركّاب انسلّوا خلسة في الرحلة. من تلك الحياة التي عشتها خلسة، تعاودني شذرات. عثرت في عيد الفصح على مقالة في مجلّة، تتحدّث عن جان نورمان وقضيّة بن بركة. كانت المقالة بعنوان: «ماذا ننتظر لنستجوب ذلك الرجل؟» مع صورة كبيرة لنورمان،

(1) Georges Figon صاحب سوابق شارك في التحضير لخطف المهدي بن بركة عام 1965 في باريس، قُتل بالرصاص في شقّته وخلص التحقيق إلى أنّه انتحر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مرفقة بالتعليق التالي: «وجه منحوت بالفأس ومصقول بالمثقاب الكهربائيّ. اسمه نورمان ويطلق على نفسه اسم دوفال. فيغون كان يدعوه «الطويل القامة صاحب الجاغوار». جورج فيغون الذي كان نورمان، الملقّب دوفال، يعرفه منذ زمن بعيد..».

في فصل الربيع ذاك، كنت ألجأ أحياناً إلى مارجان ل.، في شارع روغار. كانت شقّتها ملتقى لشلّة من الأفراد يهيمون على غير هداية بين سان جرمان دي بريه ومونبرناس وبلجيكا. بعضهم ممّن طاولته موجة المخدّرات والعقاقير المهلوسة، كان يحطّ رحاله فيها بين سفرتين إلى إيبيزا. كان من الممكن أيضاً أن نلمح في شارع روغار رجلاً يدعى بيار دوفيلز (أو دوفيلتز)، أشقر في الخامسة والثلاثين من العمر، له شاربان ويرتدي طقوماً من قماش بنقشة أمير ويلز. كان يتكلّم الفرنسيّة بلكنة راقية أجنبيّة، يعرض على طيّة ياقته أوسمة عسكريّة، ويدّعي أنّه كان تلميذاً ضابطاً في كليّة سان ميكسان ومتزوّجاً من «فتاة من آل غينيس»[1]. كان يجري اتّصالات هاتفيّة مع سفارات.

(1) آل غينيس Guiness عائلة إيرلندية مشهورة بصناعة جعة تحمل اسمها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وغالباً ما كان برفقة رجل له سحنة معتوه يتبعه بإخلاص تامّ، وكان يتباهى بارتباطه بعلاقة مع إيرانيّة.

ظلال أخرى، بينها رجل يدعى جيرار مارسيانو. وكم من الآخرين الذين نسيتهم ولا بدّ أنّهم قضوا منذ ذلك الحين، ماتوا ميتة عنيفة.

في ذلك الربيع من العام 1966 في باريس، لاحظت تبدّلاً في الجوّ، تغييراً في المناخ سبق أن أحسست به في سنّ الثالثة عشرة عام 1958، ثمّ عند انتهاء حرب الجزائر. لكن هذه المرّة ، لم يكن هناك أيّ حدث هامّ في فرنسا، أيّ نقطة تحوّل –أو أنّني نسيت. في مطلق الأحوال، لن يكون بوسعي أن أقول ما الذي كان يجري في العالم في أبريل 1966، وهذا مخزٍ. كنّا خارجين من نفق، لكن أيّ نفق، أجهل ذلك. ونفحة الطراوة تلك، لم نعرفها في الفصول السابقة. أكان ذلك وهم الشبّان في سنّ العشرين الذين يظنّون في كلّ مرّة أنّ العالم يبدأ معهم؟ بدا لي الهواء أكثر خفّة في ذلك الربيع.

إثرَ قضيّة بن بركة، لم يعد جان نورمان يسكن على رصيف كونتي، واختفى بشكل غامض. وقرابة منتصف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يونيو، تمّ استدعائي إلى مركز شرطة الأخلاق وطُلب منّي المثول أمام مفتّش يدعى لانغليه. استجوبني على مدى ثلاث ساعات ونصف في أحد المكاتب، وسط حركة الشرطيّين الآخرين المتواصلة ذهاباً وإياباً، وكان يطبع أجوبتي على الآلة الكاتبة. دهشت كثيراً حين قال إنّ أحداً بلّغ عنّي بأنّني مدمن وبائع مخدّرات، وعرض عليّ صورة أنتروبومتريّة[1] لجيرار مارسيانو الذي التقيت به مرّة أو مرّتين في شارع روغار. يبدو أنّ اسمي كان مدوّناً في مفكّرته. قلت إنّني لم أقابله يوماً. طلب منّي المفتّش أن أكشف له عن ذراعيّ ليتحقّق ممّا إذا كانتا تحملان آثار حقن. هدّدني بمداهمة الغرفة التي كنت مرابضاً فيها، على رصيف كونتي وجادّة فيليكس فور، لكن يبدو أنّه لم يكن على علم بوجود شارع روغار، وهو ما أدهشني لأنّ المدعو جيرار مارسيانو كان يتردّد إلى تلك الشقّة. أطلق سراحي شارحاً لي أنّ من المحتمل أن أخضع للاستجواب مرّة أخرى. من المؤسف أنّهم لا يطرحون عليكم أبداً الأسئلة الصائبة.

(1) صورة شخصيّة من الوجه ومن أحد جانبيه (بروفيل)، تستخدم عادةً في المحاكم وفي الأوراق الثبوتيّة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حذّرت مارجان ل. من شرطة الأخلاق ومن جيرار مارسيانو الذي لم يظهر بعدها. أمّا بيار دوفيلز، فقُبض عليه في الأيّام التالية في متجر للأسحة، وهو يشتري أو يبيع مسدّساً. كان دوفيلز نصّاباً، وقد صدرت بحقّه مذكّرة توقيف. أنا من جهتي، ارتكبت عملاً سيّئاً: سرقت مجموعة ملابس دوفيلز التي بقيت عند مارجان ل.، وكانت تتألّف من عدّة طقوم في غاية الأناقة، وسلبت علبة موسيقيّة قديمة كانت ملكاً للذين استأجرت منهم مارجان ل. الشقّة. تفاهمت مع تاجر سقط متاع قديم في شارع جاردان سان بول وتركت له كلّ ما لديّ لقاء خمسمائة فرنك. روى لي أنّه ينتمي إلى عائلة من تجّار الخردة من كليشي، وأنّه عرف جوانوفيسي[1] جيّداً. وإن كان لديّ أغراض أخرى أريد أن أبيعه إيّاها، فيكفي أن أتّصل به. أعطاني مائة فرنك إضافيّة، وقد وجد على ما يبدو خجلي مؤثّراً. في السنة التالية، عوّضت عن ذلك العمل السيّئ.

(1) جوزف جوانوفيسي (1905–1965) فرنسي من أصل يهودي روسي كان تاجر خردة معروفاً في كليشي بالمنطقة الباريسية، زوّد السلطات الألمانيّة أثناء الاحتلال بقطع الغيار وقدّم في الوقت ذاته أموالاً للمقاومة، عُرف بعلاقاته الملتبسة مع معسكرات متعارضة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استخدمت أوّل حقوق مؤلّف تقاضيتها لإعادة تسديد ثمن العلبة الموسيقيّة المسلوبة. ولَكنت اشتريت بكلّ سرورٍ بضعة طقوم لدوفيلز، لكن لم تردني بعد ذلك الحين أيّ أخبار عنه.

لنكن صريحين حتّى أقصى الحدود: قمنا أنا ووالدتي عام 1963 ببيع الطقوم الأربعة شبه الجديدة، والقمصان وأزواج الأحذية الثلاثة مع قوالبها الخشبيّة الفاتحة اللّون التي كان روبير فلاي، صديق والدي، تركها في الخزانة. بعناها لبولنديّ نعرفه، يعمل في سوق البراغيث. روبير فلاي أيضاً كان يرتدي مثل دوفيلز طقوماً من نقشة أمير ويلز، وهو أيضاً اختفى بين ليلة وضحاها. لم يكن لدينا قرش واحد بعد ظهر ذلك اليوم. فقط العملة التي سدّدها لي البقّال في شارع دوفين عن إرجاع زجاجات فارغة. كان ذلك في وقتٍ كان ثمن رغيف الخبز المستطيل فيه أربعة وأربعين سنتيماً. فيما بعد، سلبت كتباً عند أفراد أو في مكتبات عامّة. بعتها لأنّه لم يكن لديّ نقود. نسخة من الطبعة الأولى من كتاب «من ناحية شوان»[1] الصادر عن

(1) *Du côté de chez Swann* للكاتب الفرنسي مارسيل بروست.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دار غراسيه، وطبعة أصليّة لعمل لآرتو عليها إهداء إلى مالرو، وروايات تحمل إهداءات من مونترلان، ورسائل لسيلين، ونسخة من «لوحة لحرس الملك»[1] إصدار عام 1919، وطبعة سريّة لمجموعتَي «نساء» و«رجال»[2] لفيرلين، وعشرات الكتب من سلسلة «لا بليياد» وكتب الفنّ... واعتباراً من اللحظة التي بدأت فيها الكتابة، لم أعد أرتكب أدنى سرقة. وكان يحدث لوالدتي أيضاً، رغم عنجهيتها الاعتياديّة، أن تسلب بعض الأغراض «الفاخرة» والمنتجات الجلديّة من رفوف «لا بيل جاردينيير» أو غيره من المتاجر. ولم تُضبط يوماً متلبّسة بالسرقة.

غير أنّ الوقت كان يضغط، صيف 1966 كان يدنو ومعه ما يسمّى بسنّ الرشد. لجأت إلى حيّ جادّة كيلرمان، وكنت أتردّد إلى المدينة الجامعيّة المجاورة. أرتاد حدائقها الواسعة، مطاعمها، المقهى وصالة السينما فيها، وأعاشر سكّانها. أصدقاء مغاربة، جزائريّون، يوغوسلاف،

(1) *Tableau de la maison militaire du roi*.

(2) *Femmes* و *Hombres* مجموعتان شعريّتان لبول فيرلين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كوبيّون، مصريّون، أتراك...

في يونيو، تصالحنا أنا ووالدي. كنت ألاقيه أحياناً كثيرة في ردهة فندق لوتيسيا. أدركت أنّه لم يكن صافي النيّة حيالي. حاول إقناعي بتسبيق استحقاق الخدمة العسكريّة. قال إنّه سيتكفّل بنفسه بالتحضير لإلحاقي بثكنة رويّي. ادّعيت الموافقة للحصول على بعض النقود منه، ما يكفي لقضاء آخر عطلة لي باعتباري «مدنيّاً». لا يمكن ردّ طلب لعسكريّ مقبل. كان على قناعة بأنّني سوف أكون عمّا قريب ملتحقاً بصفوف خدمة العلم. سوف أبلغ الحادية والعشرين، وسيتخلّص منّي نهائيّاً. ناولني ثلاثمائة فرنك، «نفقة الجيب» الوحيدة التي حصلت عليها منه في حياتي. كنت سعيداً بهذه «المكافأة» حتّى أنّني كنت سأعده بكلّ طيبة خاطر بأن ألتحق بالفيلق الأجنبيّ. رحت أفكّر في الحتميّة الغامضة التي تدفعه دائماً إلى إبعادي: المدارس، بوردو، مركز الشرطة، الجيش...

الرحيل بأسرع ما يمكن قبل ثكنات الخريف. الأوّل من يونيو في الصباح الباكر، محطّة ليون. مقصورة الدرجة الثانية في القطار مكتظّة. إنّه اليوم الأوّل من العطلة. بقيت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واقفاً في الممرّ في أغلب الوقت. حوالى عشر ساعات للوصول إلى جنوب فرنسا. الحافلة تسلك الطريق المحاذي للساحل. إيسامبر. سانت ماكسيم. انطباع خاطف بالحريّة والمغامرة. من بين معالم حياتي، تبقى لفصول الصيف على الدوام مكانتها، رغم أنّها تختلط في نهاية الأمر، ليبقى ظُهرها الأبديّ.

استأجرت غرفة في ساحة لا غارد فرينيه الصغيرة. هناك، على رصيف المقهى-المطعم، في الظلّ، بدأت كتابة روايتي الأولى، في ما بعد ظهيرة. في الجهة المقابلة، لم يكن مكتب البريد يفتح سوى ساعتين في اليوم في تلك القرية الغارقة في الشمس والسبات. وفي مساء أحد أيّام ذلك الصيف، بلغت الحادية والعشرين، وفي اليوم التالي، توجّب عليّ أن أستقلّ القطار من جديد.

في باريس، بقيت مختبئاً. آب. في المساء، أذهب إلى سينما فونتينوبلو على جادّة إيطاليا، وإلى مطعم «لا كاسكاد» على جادّة راي... أعطيت والدي رقماً، غوبلان 71-91. كان يتّصل بي في الساعة التاسعة صباحاً، وكنت أضبط المنبّه ليرنّ، لأنّني كنت أنام حتّى الثانية بعد الظهر. كنت أواصل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كتابة رواياتي. قابلت والدي مرّة أخيرة في المقهى الذي يقدّم مثلّجات، عند زاوية شارع بابيلون وجادّة راسباي. ثمّ حصل تبادل الرسائل التالي بيننا. «**ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة، 3 أغسطس 1966.**

عزيزي باتريك، إن أنتَ قرّرت التصرّف كما يحلو لك وتجاوُز قراراتي، فالوضع سيكون كالتالي: عمرك 21 عاماً، أنت إذاً بالغ، ولم أعد مسؤولاً عنك. وبالتالي، لن يكون بوسعك أن تأمل منّي أيّ مساعدة كانت، أو أيّ دعم من أيّ طبيعة، سواء على الصعيد المادّيّ أو على الصعيد المعنويّ. القرارات التي اتّخذتُها بشأنك بسيطة، إمّا أن تقبلها أو لا، والأمر لا يقبل النقاش: تلغي إذن تأجيل خدمتك قبل العاشر من أغسطس حتّى يتمّ تجنيدك في أكتوبر المقبل. كنّا متّفقين على الذهاب صباح الأربعاء إلى ثكنة رويّي لإلغاء تأجيل خدمتك. كان موعدنا الساعة 30, 12 ظهراً، انتظرتك حتّى الساعة الواحدة والربع، وعملاً بأساليبك الاعتياديّة، أساليب فتىً منافق وعديم التهذيب، لم تحضر إلى الموعد، ولم تكلّف نفسك حتّى عناء الاتّصال للاعتذار. أؤكّد لك أنّها آخر مرّة أترك لك فيها مجالاً للتعامل معي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بمثل هذه الطريقة الجبانة. لديك إذاً الخيار، إمّا أن تعيش على هواك وتتخلّى كليّاً ونهائيّاً عن دعمي، أو أن تلتزم بقراراتي. القرار قرارك. وبوسعي أن أؤكّد لك بثقة تامّة أنّه مهما يكن خيارك، فإنّ الحياة ستعلّمك مرّة جديدة كم كان والدك على حقّ. ألبير موديانو. ملاحظة: أضيف أنّني جمعت أفراد عائلتي خصّيصاً وأبلغتهم، وهم يوافقونني الرأي بالكامل». لكن أيّ عائلة؟ أهي العائلة المستأجرة لليلةٍ في «الموعد في سنليس»[1]؟

«باريس في 4 أغسطس 1966. سيّدي العزيز، تعرف حتماً أنّه في القرن الماضي، كان ‹رقباء التجنيد› يجعلون ضحاياهم يشربون حتّى السكر قبل أن يجعلوهم يوقّعون على تجنيدهم. إنّ التسرّع الذي أبديته في تصميمك على جرّي إلى ثكنة رويّي يذكّرني بهذه الأساليب. الخدمة العسكريّة تعطيك فرصة ممتازة للتخلّص منّي. ‹الدعم المعنويّ› الذي وعدتني به الأسبوع الماضي سيتكفّل به العرفاء في الجيش. أمّا ‹الدعم المادّي›، فلن يكون ضروريّاً إذ أنّني سأجد المبيت والمأكل في الثكنة. باختصار، قرّرتُ

(1) *Le Rendez-vous de Senlis* مسرحيّة لجان أنوي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التصرّف كما يحلو لي وتجاهل قراراتك. وضعي إذاً سيكون كالتالي: عمري 21 عاماً، إنّني بالغ، ولم تعد مسؤولاً عنّي. بالتالي، لا يمكن أن آمل منك أيّ مساعدة كانت، أو أيّ دعم من أيّ طبيعة، سواء على الصعيد المادّيّ أو على الصعيد المعنويّ».

إنّها رسالة أندم اليوم على كتابتها له. لكن ماذا كان بوسعي غير ذلك؟ لم أكن ناقماً عليه، وفي مطلق الأحوال، لم أشعر يوماً بأيّ نقمة عليه. كنت أخشى بكلّ بساطة أن أجد نفسي أسيرَ ثكنة في الشرق. لو كان عرفني بعد ذلك بعشر سنوات -كما كانت ميراي أوروسوف تقول- لما كانت حصلت أدنى مشكلة بيننا. لكان استمتع بالاستماع إليّ أحدّثه في الأدب، ولكنت سألته عن مشاريعه الماليّة والاستثماريّة وعن ماضيه الغامض. وهكذا، في حياة أخرى، نسير شابكَين ذراعينا، من غير أن نعود نخفي لقاءاتنا على أحد.

«ألبير رودولف موديانو، 15 رصيف كونتي، باريس الدائرة السادسة، 9 أغسطس 1966. تلقّيت رسالتك بتاريخ 4 آب، الموجّهة ليس إلى والدك، بل إلى «سيّدي العزيز» الذي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا بدّ لي من الإقرار بأنّني المعنيّ به. خبثك ومكرك لا حدود لهما. إنّها مسألة بوردو تتكرّر. لم أتّخذ قراري بشأن تجنيدك في خدمة العلم في نوفمبر المقبل بشكل متهوّر. رأيتُ من الضروريّ لا أن تبدّل أجواءك فحسب، بل أن تجري حياتك في إطار من الانضباط وليس من الجموح والنزوات. الاستخفاف الذي تظهره مُعيب. أخذتُ علماً بقرارك. ألبير موديانو». ولم أره من جديدٍ بعد ذلك اليوم.

الخريف في باريس. واصلت كتابة روايتي، في المساء، في غرفة من أحد مباني المجمّعات الصخمة على جادة كيلرمان، وفي المقهيَين عند طرف شارع الأميرال موشيه.

في إحدى الليالي، وجدت نفسي، من غير أن أدري كيف، مع أشخاص آخرين في الضفة الأخرى من السين، عند جورج وكيكي دراغان التي كنت هربْتُ من أجلها من المدرسة في سنّ الرابعة عشرة والنصف... في تلك الفترة، كانت تسكن في بروكسل، وكانت والدتي تستضيفها في شقّة رصيف كونتي. باتت منذ ذلك الحين محاطة ببعض كتّاب الخيال العلميّ من سان جرمان دي بريه، وبعض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفنّانين من حركة «بانيك»[1]. لا بدّ أنّهم كانوا يغازلونها، وهي تبادلهم المودّة تحت أنظار زوجها الساكن، جورج داراغان، وهو صناعيّ من بروكسل، كان دعامة حقيقيّة من دعائم مقهى فلور حيث كان يبقى مسمّراً إلى مقعد منذ الساعة التاسعة وحتّى منتصف الليل، ربّما ليعوّض عن كلّ السنوات الضائعة في بلجيكا... أستذكر مع كيكي الماضي وفترة مراهقتي تلك التي باتت بعيدة، فتروي لي أنّ والدي كان حينذاك يصطحبها في المساء إلى مطعم «شارلو ملك المحار»[2]... تتذكّر والدي بمودّة. كان رجلاً دمثاً، قبل أن يلتقي بميلين دومونجو الزائفة. فيما بعد، أخبرتني ناتالي، مضيفة الطيران التي عرفها عام 1950 أثناء رحلة من باريس إلى برازافيل، أنّه في الأيّام العجاف، لم يكن والدي يأخذها لتناول العشاء عند «شارلو ملك المحار» بل عند «روجيه لا فريت»[3]... اقترحْتُ بخجل على

(1) حركة فنيّة تشكّلت في باريس عام 1962 تستمدّ اسمها من الإله بان في الميثولوجيا الإغريقيّة، ركزت نشاطها على فنّ الأداء الذي يتسم بالفوضوية والسريالية.

(2) Charlot, Roi des Coquillages مطعم في قلب حيّ كليشي في باريس اشتهر بتقديم أطباق المحار وثمار البحر.

(3) Roger la Frite مطعم في باريس معروف بالبطاطس المقليّة التي كان يقدّمها مع جميع أطباقه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جورج داراغان وكيكي أن أعرض عليهما مخطوطة روايتي لقراءتها، وكأنّنا في صالون السيّد والسيّدة دو كايّافيه[1].

ربّما كان كلّ هؤلاء الأشخاص الذين عرفتهم على مرّ الستينيّات ولم تسنح لي الفرصة منذ ذلك الحين أن ألاقيهم من جديد، يواصلون العيش في ما يشبه عالماً موازياً، بمأمن من الزمن، بملامح وجوههم من الماضي. كان هذا الخاطر يجول في بالي قبل قليل، وأنا أمشي بمحاذاة الشارع المقفر، تحت الشمس. أنت في باريس، عند قاضي التحقيق، كما كتب أبولينير في قصيدته[2].

والقاضي يعرض عليّ صوراً، وثائق، أدلّة إثبات. ومع ذلك، تلك ليست حياتي تماماً.

ربيع 1967. عشب المدينة الجامعيّة. حديقة مونسوري. عند الظهر، كان عمّال شركة سنيكما يقصدون المقهى، عند أسفل المبنى. ساحة ليه بوبلييه، بعد ظهر يوم يونيو حين علمت بأنّهم قبلوا كتابي الأوّل. مبنى سنيكما ليلاً، مثل

---

(1) السيّد والسيّدة آرمان دو كايّافيه، كان لديهما صالون أدبيّ وسياسيّ في أواخر القرن التاسع عشر.

(2) إشارة إلى بيت من قصيدة «منطقة» *Zone* للشاعر الفرنسي من أصل إيطالي غيّوم أبولينير.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

باخرة جانحة في جادّة كيلرمان.

مساء أحد أيّام يونيو، في مسرح لاتوليبه، ساحة دانكور. مسرحيّة غريبة لأوديبرتي: «سقوط كور»[1]. كان روجيه يعمل مديراً للمسرح. مساء زفاف روجيه وشانتال، تناولت العشاء معهما في الشقّة الصغيرة، شقّة شخص لم أجد قطّ اسمه فيما بعد، في ساحة دانكور تلك ذاتها حيث أنوار المصابيح تختلج. ثمّ غادرا في السيّارة إلى ضاحية نائية.

في ذلك المساء، شعرت بنفسي خفيفاً لأوّل مرّة في حياتي. التهديد الذي كان يلقي بظلّه عليّ طوال تلك السنوات، فيرغمني على البقاء مترصّداً دوماً، ذلك التهديد تبدّد في هواء باريس. أبحرت قبل أن ينهار الجسر العائم المنخور بالسّوس. كان قد آن الأوان.

(1) *Cœur à cuir* مسرحيّة إذاعيّة لجاك أوديبرتي، مقتبسة من صعود جاك كور وسقوطه، وهو شخصية من القرن الخامس عشر. وفي العنوان تورية، إذ أنّ اسم العلم Cœur هو أيضاً اسم عامّ معناه «قلب».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نبذة عن المؤلّف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيّانكور قرب باريس في 30 يوليو 1945 لأمّ ممثّلة من أصل فلامنديّ، وأب يهوديّ فرنسيّ من أصل إيطاليّ شكّل غموض سيرته أحد أهمّ عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعيّ والسياسيّ المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخيّة إلى مأساة وجوديّة ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أمل جارف في تأسيس الذّات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوّج عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصيّة، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبو ظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربيّة.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

نبذة عن المترجمة:

دانيال صالح شاعرة لبنانية باللغة الفرنسية، لها مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة الليل» صدرت في باريس عام 1984، و«الخطوات النائمة» صدرت في بيروت عام 1985. ترجمت في الصحف والدوريّات اللبنانيّة والعربيّة عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفيروبول إلوار وجورج شحاده وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولو كليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعار لأنسي الحاج إلى الفرنسيّة، وأعدّت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصّة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصّة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربيّة «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» للياباني ناتسومي سوسيكي، و«فيضان ونصوص أخرى» لإميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سلالة

أكتب هذه الصفحات كمن يحرّر محضراً أو سيرة شخصيّة، بصفة توثيقيّة، ربّما للانتهاء من حياة لم تكن تخصّني. مجرّد شريط من الأحداث والأفعال. ليس لديّ ما أعترف به ولا ما أكشف سرّه، وأنا لا أشعر بأدنى ميل إلى التأمّل في النفس ومراجعة الضمير. بل على العكس، كلّما بقيت الأمور غامضة ومبهمة، ازداد اهتمامي بها. لا بل كنت أجهد في إيجاد سرّ لأشياء خالية من الأسرار. والأحداث التي سأنقلها حتّى عامي الحادي والعشرين، عشتها في «عرض خلفيّ»، تلك الوسيلة التي تقضي بعرض مشاهد على شاشة خلفيّة فيما يلازم الممثّلون أماكنهم في موقع التصوير في الاستديو. وددتُ لو أترجم ذلك الانطباع الذي أحسّ به كثيرون من قبلي: كانت الأحداث كلّها تتعاقب كأنّما على شاشة خلفيّة ولم يكن بوسعي بعدُ أن أعيش حياتي.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY
9 789948 174813

www.kutub-pdf.net